
حبّ
عظيم
(أوراق مغتربة)
خواطر قصصية
بقلم
ثريا محمد رمضان حداد الحبشي




اسم الكتاب: حبّ عظيم.. (أوراق مغتربة)

بقلم: ثريا محمد رمضان حداد الحبشي

موضوع الكتاب: خواطر قصصية

عدد الصفحات: 128 صفحة

عدد الملازم: 8 ملزمة

مقاس الكتاب: 14 × 20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2016/19464

الترقيم الدولي: ISBN : 978 - 977 - 278 - 573 - 5

1437 هـ
2016م

## التوزيع والنشر

دار البشير للثقافة والعلوم

Darelbasheer@hotmail.com

Darelbasheeralla@gmail.com

ت: 0115280653 - 01012355714





# حبّ عظيم

## (أوراق مغتربة)

## خواطر قصصية

بقلم

ثريا محمد رمضان حداد الحبشي



# الإهداء

أهدي هذه الخواطر القصصية..

- إلى أمي الحبيبة، وإلى قلبها الكبير وحنانها العظيم إلى غاليتي التي تشكل قطعة من قلبي.
- وإلى أبي الغالي مثال الرحمة والحب.
- وإلى رفيق دربي وحب عمري زوجي الحبيب.
- وإلى أبنائي الأحباء.
- إلى كل امرأة استمعت لها، وفتحت لي قلبها.
- إلى كل اللآلئ المصونة والجواهر الكامنة، والقلوب العظيمة.
- وإلى القلوب الرحيمة التي عن عالمنا رحلت، ودعوة من أعماق القلب لهنّ بالرحمة والمغفرة.
- إلى كل هذه القلوب أهدي كلماتي.

ثريا محمد حداد

# المقدمة

حتما سنخترع الأعذار، ونرتب البراهين، وسنعلن لأنفسنا أننا لا نكذب حين نخفي جروحنا بدافع التجمل، نصنع لأنفسنا واجهة برّاقة، ونخفي بداخلنا لحظاتِ الخذلان.. لحظات القهر، أو حتى أنين مشاعرنا، وسنلجأ لتلك الشجرة القابعة في زاوية ما من عالمنا؛ حيث لا يعرف عنها أحد شيئًا، وسنعلق عليها أمانينا، التي استسلمت فيها قلوبنا لواقعنا، وسنغادرها لفترة ثم نعود؛ لنكتشف أنها حقًّا امتلأت. وأن غصونها لم تعدْ تحتمل المزيد.. وسنسأل أنفسنا كيف مضى بنا العمر؟.. وكيف تحملت تلك الشجرة كلَّ تلك الأوجاع.



# حب عظيم

طريقة واحدة تلتزم بها كل امرأة مصرية حين تفتح عينيها صباحًا، وتظل تتساءل على وسادتها عن يومها الجديد.. وما يحمله من أحداث تتمناها وأخرى تخشاها.

هكذا هي الوجوه حين تطالعها، في كل وجهٍ قصة. بعض الوجوه قوية قاسية، وبعضها ضعيف. انكسار قلوبها يظهر جليًّا في نظراتها.. كلُّ وجه من كل يوم في حياة كل امرأة عاملة يبدأ بنفس الأحداث: الماء، أشعة الشمس، والعمل. على محطة القطار قابلتها.. وجدتها تحمل في يديها كيسًا، وبه تضع: مالها، ومنديلها، أغراضها، وزجاجة من الماء. لم يكن صعبًا التعرفُ عليها ومعرفة سرٍّ جديد من أسرار الوجوه، التي نقابلها على امتداد قطار الحياة. لم أكن خبيرةً يومها في تحديد العمر، دائمًا كنت أخطئ التخمين، واليوم تكفي نظرة في عين امرأة لنعلم إن كانت تعيش في سعادة أم تحمل في جوفها قلبًا يبيت في تعاسة.

ترتدي جلبابًا بسيطًا، وتحمل بداخل الكيس صورة.

سألتها: لمن؟



قالت- لزوجي:

ولماذا تحملينها؟

قالت: إن صورته لا تفارقني. أنا أذهب لزيارته كل يوم جمعة. لحظات لم أستوعب حديثها، ثم أيقنت أن زوجها توفى.

عدت بخبرتي البسيطة تلك التي أمتلكُها، قارنت الصورتين.. صورته ووجهها، وجدت فارقًا ملحوظًا في العمر بينهما، وبدون أن أسألها أجابتني: إنه يكبرني بعشرين عامًا. وكأنها قرأت السؤال في عيني، وأجابتني دون عناء المحاولة. أخبرتني أنها تزوجت كبيرة في السن لرجل قضى عمره كاملًا مع امرأة أحبها من أعماق قلبه وله منها أربعة أولاد، لكنها فارقت الحياة. وبعد عامَيْن من الحزن؛ قرر الزواج، وكانت هي من نصيبه.

أخبرتني أنها تحبه وأنها تشعر أنه مازال معها. لأربع سنوات كاملة لم تنقطع عادتها عن زيارة قبره. كل أسبوع تذهب إليه.. تقرأ الفاتحة، وتدعو له، ثم تعود. سألتها: لم تتخلفي قط؟ ولماذا هذه المداومة؟ يمكن أن تدعين له وأنتِ في بيتك!.

قالت ببساطة: لأنني أحبه، وأشعر بسعادته عندما أزوره.

سألتها عن عمرِ زواجهما، فأخبرتني أنها كانت حبيبته لمدة عامين.

عامان.. من الحب، من السعادة، من الحنان.

عامان.. من المودة، من المشاعر، ومن التمني.

كنت أشعر أنني في حلم، أعيش معه في شقة صغيرة، لم يعرف قلبي معنى الفرح الحقيقي إلا معه. تعجبت لنفسي ما أكثر شيء أحببته فيه؟ ماذا جذبني لقلبه؟ كيف اخترق عالمي؟ ما تلك العبارات البسيطة التي تجمع ضحكاتنا؟ كم لنا من ذكريات أغلبها جميل وأشدها قسوة كان له مبررٌ أدركته لاحقًا. حب عظيم.. له أمثل الشخص الذي يستقبل حزنه فيزول، وضعفه فيقوى، وسعادته فتنمو، وجوده في حياتي يشبه شجرة زرعناها معًا، ومرت عليها كل الفصول، مرة تساقطت أوراقها، ومرة ازدهر عبيرها. والجميل في الأمر أن جذورها تشتد بمرور الزمن، فلا جمال لعام الحب سوى باختلاف الفصول.. ربيع قلوبنا، وروعة الخريف، وصيف السكينة، ودفء المودة. عجبت كيف ينخلع قلبي نادمة حين يغضب. وكيف يكون لسعادتي مذاق خاص عندما يضحك.

واليوم، أفتقد وجوده في حياتي.. كنت أستمع إليها، وأسأل قلبي الذي لم يعرف الحب بعد. أدواتها في الحب بسيطة سهلة، وحساباتها ليست معقدة في الحب لا مجال لاختيار ثالث، إما حبٌّ أو لا حب.

هكذا هي المعادلة، وفي قلب كلٍّ منَّا حبٌّ عظيم.. فقط لأشخاص كانوا معنا صادقين منزهين من المكر، ومن المصالح.. الحنان لا مجال فيه للتسول والمشاعر. لا مكان فيها للنفاق، وحين ننصت لقلوبنا سنعلم.. من- حقًّا- أهدانا حبًّا عظيمًا، ومن- حقًّا- لم يكن يستحق ذاك الحب.

# بعيدًا جدًّا عن تلك الكلمة التي تسمّى.. المال

يمكن للمال أن يمنحك صنفًا من السعادة، أو ربما نصيبًا منها لفترة أو لعمر، لكنه ليس ضامنًا؛ فكل شيء ينتهي ويزول إلا الحب والوئام، المشاعر ترتبط كثيرًا داخلنا بذكريات الطفولة.. من كان يمنحنا الأمن، الرفق، والكثير من العاطفة، أيّ الأمور كانت تنقلنا من حزن خافت إلى سعادة باسمة؟ إنها أشياء لا يخبرك بها حديث المال، ذاك الذي شكَّل على امتداد العصور أزماتٍ وصراعات، قلتها– بقوة–: كانت هي الخاسرة.. نعم، هي الخاسرة.

انتهي حديثي معها، وبداخلي ندم شديد على وصفي لها، نحن نُنصِّب من أنفسنا حكامًا على الآخرين، نبدع في وصفهم بالمقصرين، ونطرح الحلول، ونقدم البدائل، بل نصدر القرار قائلين.. لو كنت مكانها كنت فعلتُ وفعلت.

حكايتها صنعت بداخلي حيرةً وتساؤلًا عن الأولويات.. سافرت هي إلى بلاد الغربة، رحلت بحثًا عن المال، أرادت أن تصنع من زيادته مستقبلًا لأولادها؛ ضمانًا لحياة كريمة في مجتمع يهتم كثيرًا بالشكليات. بيت كبير.. رصيد بنكي.. والكثير من الأمنيات.

ميدان العمل كان بالنسبة لها وسيلة لجني المال.. مال أرادت به أن يُشكّل في حياة أبنائها فارقًا. ولدان وبنتٌ.. اختارت أن تأخذ منهم معها واحدًا.. وتركت الصغار مع أمها.. محمد ونادية.. ابتعدوا عنها ليس بالوقت والأعوام التي تمر وتزيد ببطء رقمًا فوق الآخر. لكن أيضًا في المشاعر. مدهش.. أن تعيش عمرًا كاملًا وتتذكر كيف كنت طفلًا، وكيف كنت تحب من يحنو عليك. وتتذكر أيضًا من كان معك قاسيًا.. من احترم حديثك، وأحلامك، وقلبك. من كان بك رحيمًا، ولرغباتك ملبيًا. احتضان رقيق يشعرك بالأمان.. لا أحد يمكنه أن يمنحك السعادة كقلب أمك.. تركتهم، ظنّت أنه بالمال يمكنها أن تمحو ما أصاب طفولتهم البائسة من قسوة في بيت الجدة. النسيان نعمة.. لكنّ أمورًا في ذاكرتك لا يمحوها نضجٌ.. أو عمر. نحن نظل صغارًا بحاجة إلى اللين، الحب، والسكن، حتى لو كسا الشعرُ الأبيض رأسَنا. تركُهَا لهم زرعَ بداخلهم عالمًا كبيرًا وحزينًا.. وقت طويل وليال كثيرة افتقاد للأم في أجمل مراحل العمر. كان قلب ابنتها غاضبًا بشدة، مستاءً، راغبًا في الكثير من العتب. رد القسوة.. رد البعد.. ورغبة أكبر في إيلام من تحب.. أمها.

مؤسف حقًّا.. كيف نبدع في قتل قلوبنا، وإيذاء من نحب بإتقان؟! بعودة الأم واستقرار في الوطن.. البيت.. المال.. السيارة.. كماليات الحياة، التي وفرتها لهم.. لم تُغنِهم عن سنوات عمرهم التي لم يكن لها وجود في حياتهم.

كانا نموذجين ليتم الأم وهي على قيد الحياة. تركوها في مرضها كما تركتهم.. أرادت أن تعاقبها. في حقيقة الأمر عاقبت نفسها.. لم تقوَ على المسامحة أو حتى محاولة العتاب. يمكن للقلوب أن ترِقّ.. أن تضعف أمام المرض والوهن والعجز، الذي أصاب الجسد، لكن قلبها كان قد اشتد عوده وقسا كالحجارة. أصبح صلبًا، غاضبًا، أرادت أن تسقيها مرارة كأس الهجر، وكيف أن الترك يعلمك أن تتعايش، لكنه يتركك كثيرًا باكيًا على وسادة أحلامك مرات ومرات.

ابتعدت نادية ومحمد عن أمهما كثيرًا، أما باسم فقد كان يكنُّ لأمه حبًّا عظيمًا. مرضت مرضًا شديدًا، ظلت عاجزة عن الحركة، صحتها ضاعت في بلاد الغربة بحثًا عن المال، ظنت أن بإمكانها شراء حلم السعادة الذي حرمت منه.

حلَّت النهاية، ماتت الأم.. ماتت معها أشياء كثيرة: بركة البيت، وسعادة خدمتها، وحب ضاع في سنوات الغربة التي أبعدتها عن أحضان أبنائها. حزنت نادية كثيرًا، وبكت.. بكت كما لم تبكِ على شيء قط، ندمت ندمًا شديدًا، بكت حتى انفطر قلبها، وتمنت أن يعود الزمن للوراء، ما بال الوقت! لمَ لا تتحرك عقارب الساعة للخلف؟! أريد أن أنهي اللوم، ثم أحتضنها قائلة لمَ تركتِنِي؟ كنت أريدُك.. أحتاجك.. أشتاق إليكِ. مرت الكثير من الليالي وأنا أتمنى أن أتحدث معكِ عن كل أموري، حتى أموري التافهة.. ربطة شعري.. وحذائي الذي لا يعجبني.. صديقتي التي آلمتني.. معلمتي التي أرادت أن تحضري

ليَ يومًا في حفلات المدرسة.. فستاني الذي أردت أن تصْحبيني لشرائه. هي أشياء تشتري بالمال، لكن المال لا يمكنه أن يشتري لحظات السعادة.

أرادت نادية أن تخبرها بالكثير، لكنها رحلت.

أما محمد.. بكى عليها ولهًا. حياته بعيدًا عنها علمته أن لا أحدٌ يهتم بك، عليك إذًا أن تعتمد على نفسك. حين تزوج اهتم كثيرًا بنفسه.. ماله من عمله كان ينفقه ببذخ على شراء أفخر الثياب، الذهاب إلى المطاعم، الرغبة المستمرة في شراء كل ما يشتهيه، سواء احتاج إليه أم لم يحتاج.

الهجر لا يترك لك خيارًا، يمنحك بذكاء طريقه للحياة، تظل ثابتة معك مهما كبرت.. مهما نضجت.. ومهما استمعت للنصح؛ الحياة لا تتوقف على أحد؛ فالأب يملك منزلًا جميلًا، سيارة، ورصيدًا بنكيًّا. تزوج بأخرى بعد وفاة رفيقة الغربة. إنها امرأة مطلقه لم تنجب.. أراد قضاء ما بقي من عمره مع امرأة عاقلة تؤنس وحدته، وأبناؤه كبار متزوجون، ولكلٍّ منهم ثلاثة أطفال.

حين ننجب نظن أن أبناءنا سيكونون نموذجًا منّا في كل شيء، لكننا نكتشف أنهم صغارٌ مختلفون.. طبائعهم، حبهم، وهواياتهم. الابن الأكبر تقبّل وجودَها على مضض، هو لا يطيق رؤية امرأة أخرى في مكان أمه، بل رغب بعد فترة في الهجرة؛ علّ وجعه يتوقف.

أما نادية فوجود امرأة أخرى في حياة والدها آلمها كثيرًا، جعلها تحضر مناسباتهم في صمت، تجلس كضيفة في بيت أبيها، ثم تهم بالرحيل.

يختلف المشهد كثيرًا في عدم وجود أم، وتتذكر كيف كانت أمها تعطيها بعض الحلوي وقت انصرافها، وتمتنع هي عن قبولها؛ رغبة في إرسال الكدر وإيلام العين والقلب، ثم تغمض عينيها نادمة، وترحل في هدوء. الأم ترعى، تهب قوة وحماية، تصنع رعاية وترحابًا.

أما محمد فكان يكرم زوجة أبيه، ليس حبًّا فيها، بل رغبه في إيلام شقيقه الذي حصل على القسط الأكبر من الحياة مع أمه. افتقاد محمد لأمه كان عظيمًا، جعله يحاول البحث عن كل أم. وجد الرعاية في الحماة.. أم زوجته، كانت هي الأخرى نموذجًا للاحتواء، وأراد أن يشعر هو بإحساس الاشتياق والعشم وحسن المودة، يحضر لها الهدايا حبًّا، ويرسل لها أوقاتًا من الود والزيارات، يعوض البر فيها، وهي تخبره باستمرار أنه ابنٌ لها.

في قلب كل منّا مأساة.. بطلها الحب، أو افتقاد الحب، أو ربما رحيل الحب.

الحب يمكنه أن يجعلك سعيدًا جدًّا جدًّا، ثم يؤلمك حين يتركك وحيدًا. المال عامل يمنحك السعادة، لكنك لو فقدت الحب والحنان؛ فلا المال ولا حتى سعادتك بامتلاكه له قيمة؛ لأن ثمة أمور تتلاشى كالدخان.. تتبعثر حتى تندثر، وحين تذبل ورود الذكريات لا تبقى الابتسامة، بل عينان يملأهما الكثير من الدموع، فلتهدئي أيتها القلوب الجريحة، ولتعلمي حقًّا أن السعادة بعيدة تمامًا عن تلك الكلمة التي تسمَّى المال.

# قلب أمي

أتمنى أن يعرف عنها الناس كم كانت صابرة، وكم تحملت من أجل أولادها. الحب مقلق يجعلك تفكر آلاف المرات حين تخطو نحوه، لا يخلو قلبك من الخوف.. من القلق، ومن الوجع. تظل تفكر مرة.. تحلم بأنه سينقلك، سيغير واقعك، سيجعلك سعيدًا.. بعيدًا عن كل واقع تتمنى الهروب منه، وتارة أخرى يجعلك تتردد.. ترغب في الابتعاد، تغلق عينيك خوفًا من أن يكون كابوسًا تعلق به، ويأكل من روحك، ولا يترك لك خيارًا لكي تفيق منه.

كان حبها لها عظيمًا رائعًا نابعًا من قلبها. هي تتحدث عنها برأفة.. بشفقة، وبكثير من الأسى تقول.. هي أمي، منذ اللحظة الأولي التي خطوت فيها لبيتها لم أنادها سوى بأمي. أخبرونا كثيرًا بأن لا حب يضاهي حب الأم لابنتها، لكن قلبي أحبها.. أحببتها بكل كياني، إنها أم زوجي. امرأة تحمل في جوفها عطاءً نادرًا.. وضعفًا يجعل قلبك ينكسر، وقوتك تتهاوى في حضورها.

أنجبت ثلاثة شباب.. أطفالها هم عالمها وطموحها، وحتى أحلامها، كانت عنهم ولهم. حين تزوج ابنها الأصغر ظلت تخبرني برفق.. أنا وأنتِ نحمل نفس الاسم، وستنجبين مثلي ثلاثة ذكور، تحقق مرادها.. وفي

كل مرة كنت أنجب طفلًا كنت أتذكر همساتها الرقيقة.. عنت لي الكثير، وتمنيت مرارًا أن أنقذها من هذا الجحيم الذي تعيش فيه.

جدران بيتها.. شارعها.. جيرانها.. حارتها التي يعرف كلُّ من فيها من هي. تلك المرأة.. تلك الأماكن كانت شاهدة على ما أصاب قلبها وجسدها من عنف وانكسار. عيناها التي ظلت تبكي في الخفاء لأعوام، وروحها التي كانت تتلقى الضربات المتكررة مرارًا وتكرارًا.. أو تلك التي تفضل أن تتلقاها بدلًا من أبنائها حين يختبئون خلفها، ويبكون خوفًا من أن تطالهم عصا الأب الغليظة.. تلك العصا التي احتلت مكانًا طويلًا في عالمهم الصغير. أغمض زوجي عينيه وهو يصف لي كيف تلقى ضربات المسطرة الحديدية حتى سال منهما الدم. لم يبكِ، كان ينظر في عينيه، وكأنه يخبره لن تهزمني، لن تكسرني. وحين تدلف إلى حجرته أمُه وتمسح بيدها الجميلة على رأسه، ثم ترفع وجهه لتنظر في عينيه.. يبكي أمامها، وتبكي هي الأخرى معه، وعليه، لم يجد في حياته أروع من ذاك الحضن حين ترمي بهمومك وتسأل نفسك أي شيء في هذه الدنيا يساوي تلك اللحظة. في كل مرة كاد الغصن أن ينكسر، في كل مرة كاد الحائط أن ينقض، لكنها كانت تضمد جروح قلبي بعناية، تضمني إلى صدرها، وتخبرني أن كل شيء سيصبح على ما يرام.

شيء ما لا يمكن وصفه، رحمة غريبة تجعل كيانك يهتز، وقوة خفية تجعلك تستمد عافيتك لتنهض من جديد. الوقت في حضورها كان له نكهة خاصة، وحين نجتمع على مائدتها تسألنا مَن أكملَ الواجب؟ أنت، هذا ليس خطًّا جيدًا، لا.. لا يعجبني طريقة حفظك للنشيد، أتقن الأمر، حاول مرة أخرى. مع أنها لم تكن متعلمة، لكنها كانت تتقن فنونَ الحب حتى حين أخبرها أنا لست ذكيًّا، هذا صعب، غيري أشطر مني. تنظر في عينيي، وتقول: أنت ابني وأعلم أنك ستكون من الأوائل. يا ولدي، الدنيا عبارة عن قوسين.. قوس هو الولادة، والقوس الآخر هو الموت؛ فاصنع بينهما شيئًا مفيدًا. لم يحتج أي منا أن تخبره.. ذاكر، كُف عن اللعب، توقف، متى ستنجز فروضك. لم تكن بحاجة لذلك، كنت أدرس لأسعدها؛ لأرى نظرة الفخر في عينيها، ولأخبرها أنها صنعت مني رجلًا، كما كانت تلقبني دائمًا، التحقت بالعمل جربت أصنافه منذ كنت في المرحلة الإعدادية، وكانت سعادتي حين أحضر لها هدية من عملي، وتلومني؛ لأنني لم أوفر النقود لنفسي.. يا بني، أنت بحاجة للمال، حقيبة جديدة للمدرسة، وكتب، ولوازم أخرى.

في الثانوية، نجحت نجاحًا أبهرها، تمنت أن ألتحق بكلية الطب، لكنني تراجعت.. فكيف سأتحمل كلفة كل هذه السنوات، التحقت بكلية العلوم وأخي الأكبر التحق بكلية الحقوق. كانت فخورة بنا، وكنا نحن

نرغب في إنقاذها من حياة بائسة تحملتها من أجلنا، لم يفلح سنها ولا حبات الضوء الأبيض الذي كسا رأسها مخبرًا لك.. كم أن العمر يمضي. فكرت ذات مرة أن تحمل حقائب المغادرة، أن تملك الخيار ولو لمرة واحدة من هذا الزوج القاسي، لكنها كانت أسيرة، لم تفلح محاولات اللين، أو حتى تجربة القوة معه، كان الأمر صعبًا، وغير مقبول. كانت مهددة بهم، كانت تخشى أن يؤذيهم، كان كهفًا لا يمكن مغادرته، أو حتى تمني العيش بعيدًا عنه.

أخبرتني مرَّة أنها هي والشجرة يشتركان في أمر واحد.. كلاهما عالقان في الأسى والحزن، وكلاهما لا يمكنه مغادرة المكان. جذور الحب التي زرعتها في أبنائها كانت هي الشيء الذي عاشت به. الحب الذي رسمته لأحفادها، عطاؤها وقلبها الذي يجعلك تعشق تفاصيلها، حنانها المتدفق، وصبرها الذي يشبه الجذور يشتد ويكبر، حتى أصبح صلبًا على حساب صحتها. مرضها قتلنا، خوفنا عليها ذبحنا من الوريد إلى الوريد. أن ترى قطعة من قلبك تتألم.. هذا الأمر يقتلك مرارًا وتكرارًا، تراه يتألم أمامك وأنت لا يمكنك تغيير الوجع أو تخفيف الألم. دعواتها المستمرة لي ولزوجي كانت لنا منارة أضاءت طريق حياتنا، وملأته بالخير والبركة والتوفيق، لسانها الرطب بذكر الله في كل حين، كلماتها الدافئة وقلبها

الرحيم، غازلتها ذات مرة حين كانت تمشط شعرها.. قصيه؛ فهو يأخذ منك وقتًا طويلًا في جدْله كضفيرة. قالت لي برقة: لا. هذا ما سوف يحمي ظهري في قبري، سأرقد عليه مرتاحة.

باعدت الغربة بيننا، سافرت أنا وزوجي لتوفير حياة كريمة لها ولنا، كان كل تفكيرنا.. كيف يمكننا جعلها سعيدة؟ ماذا نحضر لها لكي يفرح قلبها ويبتسم. في الغربة تختبر الوقت مرارًا، تفكر كثيرًا وأنت تقلب أوراق النتيجة السنوية، تزيل كل يوم ورقة، وتتمنى مرور الأيام وتنسى أنها من عمرك. تشتاق لتفاصيل يومك معها، ولطعامها الذي يخلو من النكهات، بساطة طريقتها، وبركة يدها، وغذائها.. ذاك الذي حين تتذوقه تتعجب من جودة الطعم ومهارة الصانع، برغم خلوّه من دسم الحساء. لوقت قريب كنت أظن أن الطير يوزع على خمسة أفراد، علمت بعد الكبر أنها كانت تعطينا مأكلنا، ولا يتبقى لها شيء، كانت سعادتها هشة تتدلى من غصن هش، لكنني غامرت، وقفزت لأمسك بها. في النهاية، سقطنا نحن الاثنان، لم تحضر يوم زفافي؛ كانت متعبة. العمر الذي يمضي لا يغير حقيقة كونك في عين أمك صغيرًا، وكونك صغيرًا بدونها حين ترحل عنك.

هذا الحب الذي حين يرحل يتركك بدونها ضائعًا، المشهد الذي أثرى حياتي، وهي تحتضنني بحجمي وجسدي الهزيل يشبه جسدها الصغير في أحضاني وأنا كبير، وقبلاتي التي أرسلها لها، وضحكاتها التي تنير وجهي وتجعلني مشرقًا سعيدًا مستغنيًا عن كل شيء.

الحب نعمة، والصبر طريق، والقلوب كثيرة وعامرة، لكن لا قلب حقًّا كقلب أمي.

# قصة حب

كانت سعادتها غامرة وهي تخطو أولى خطواتها في منزل الزوجية

إنها تحبه بجنون، تعشق تفاصيله، تتمنى رعايته، تنام على صوته، وتصحو على عينيه، التي تخبرها بكلمات الحب التي لا ينطقها كثيرًا، أليست العين حاملة قاموس الصدق الأول، لا يمكنها أن تخدعك نظراتها حين تتكلم وحين ينصت قلبك لها، ثمة لمعة خاصة لا يفقهها سوى المحبين.

حياتهما الجديدة ظلّا يرسمان ملامحَها ثلاث سنوات، هي عمر خطوبتهما أساسًا أجزاء بيتهما، وحلما معًا بأول صبي سيربط اسمهما معًا في شهادة الميلاد، لكنه أراد أن يكون مولودُه الأول فتاة.. تملك قلب أمها البريء.

كان يكن لها حبًّا عظيمًا، يعشق طريقتها، بساطتها، شقاوتها، وحتى بكاؤها لحظة خطئها لا يملك قوة للقسوة عليها حتى لو كانت مخطئة، ثمة حد لا يمكنه تخطيه، ثمة ضعف ما أمامها لا يقوى على تغييره، ثمة قوة تخبره أن لا مكان لعقاب أو حساب أو حتى بعد إن هي أخطأت.

كان يشتاق لوجودها في تفاصيل يومه، في دفتر عقله، ويتعجب من مواعيده مع أصحاب دربه تاركًا لهم من أجلها.. كان حبًّا يخترق كل المعاني والكلمات، أفاق منه على كابوس مرضها الشديد، حار معها في عالم الطب، خاض حربَ المرض.. وكأنه فارسها المجاهد، وتمنت هي برغم المرض أن تترك له ذكرى منها سعت للحمل، أرادت أن تترك قطعة منها له يرى فيها ذكراها رائحة عطرها وعينيها المحبة. تخبره دائمًا.. يزداد حبي لك كلما دق قلبي، حين يغيب في مهمة عمل تنطفئ كوردة جفَّ عنها الماء، وحين يعود تتوهج، وكأن أحدًا ما قد أضاء النور بداخها.

لم تفلح المحاولات، غادرت عالمه في هدوء كما دخلته في هدوء، تركت في قلبه جرحًا غائرًا عميقًا وفراغًا لا يدركه أحدٌ غيره، رحلت هكذا.. ورحل معها قلبه، وكأنه أقسم أن لا مجال لنساء الأرض بعدها، مرّ الوقت.. ربما توقفت العين عن ذرف الدموع، بينما ظل وقعها في القلب باقيًا، فقطرة الماء يمكن أن تصنع جدولًا.

عزيزي، لا يمكنك أن تظل هكذا بدون زواج، وأمام الضغوط العائلية خضع، تزوج. كنا نظن أن امرأة أخرى في حياته ستجعله ينسى.. ينشغل بأولاد يخترقون سكونه، ويبتسمون في وجهه، ومعهم ينسى هموم العالم، كنا نظن كغيرنا أن الوقت كفيل بكل شيء، وتجارب الدنيا أخبرتنا أن لا رجل يحزن على امرأة أكثر من ستة أشهر، ومضى من عمره مع الأخرى ست سنوات.

تلك التي أصبحت مجبرة على عيش حياة كاملة في ذكرى أخرى.. مضى كل هذا الوقت، ومازال يذكرها كل لحظة، يبكيها في خاطره، وينشر اشتياقه لها عبر صفحات الفيس بوك، ودعواته لها. وكأنه يخاطبها.. أنت مازلت في قلبي، وأنا على العهد وفيًّا، هل تلك هي حيرة الحب حين يزور قلوبنا وحين يخبرنا بالعهد، أتراه الحب الحقيقي بذاك الجمال. محظوظون هم من يجدوه، والأكثر حظًّا من يحتفظون به، وفي الحياة سنعرف مَن حقًّا أهدانا حبًّا حقيقيًّا، ومَن حقًّا لم يكن له نصيب منه.

# زِيٌّ المدن

رتبي أوراقك جيدًا يا مي، لا تكوني متعجلة، تحليْ بالصبر، واطلبي نصح الآخرين، لا تكوني مثلي فتهدرين حياتك بلا جدوى، فكري مرارًا ولا تعاندي أهلك؛ كي لا تمضين بقية حياتك وأنت تنظرين إلى الخلف.. إلى ما أحببته وفقدته بيننا عاش البأس. نقترب كأسرة في أسمائنا، ونختلف في فهم الحب ومنطق الخوف علينا من الغرباء.

ظلوا يرفضون كلَّ من يتقدم، يخبرونني أنهم غير مناسبين، وأن الانتظار أولى وأفضل، يسألونني عن المزايا، ويوضحون لي العيوب وأنا لا أستمع. عقل صغير وزاوية ضيقة جعلتني أظن أنهم لا يريدون تزويجي، وصمة عنْدٍ قتلت حبي لهم، جعلتني أختار حبًّا أعمى، وأبيع وفائي لهم.

استماع مغلوط لصوت أصحاب النعرة الكاذبة، يخبروننا فيها أن الزواج عن حب؛ أفضل بكثير من قصص زواج الصالونات وطرق الأجداد القديمة.

تزوجته رغمًا عن أبي، حملت بضائعي، زحفت نحو حب وهمي، رقصت فرحة وكأنني فزت بجائزة كبيرة، وضعت عنوانًا لسعادتي.. وظننت

أنه العنوان المناسب. غادرت معهم، وغادروا هم معي. ولم نلتقِ قط، غادرت دفء لقياهم وبساطة الحياة في رحابهم، حملني الشوق لزيارتهم كثيرًا، وانتهى الأمر بغربتي وحدي في منزل زوج لا يبعد عنهم في المسافة كثيرًا.

عشت أوجاع الغربة في وطن الأهل، وحرمت نفسي منهم بارتكاب خطأ الاختيار، غبت في الزحام حين غاب كل ما معي، كل شيء.. سعادتي بهم، وجودهم في حياتي، وذاكرتهم التي عزموا على إلقائي بخارجها.

قاطعوني، أرخَوْا حبل الود، وحرقوا قارب الرحم الذي يربطني بهم. ذهبت إلى أبي، قرعت جرس الصفح وهو لم يجب النداء. عاودت مرارًا وفي كل مرة كان الصوت أقوى، وكان الرد رفضًا بلا عتب. أصبحت الحياة في عيني مظلمة، لا أرى فيها ألوانًا.. في كل عام أعيد المحاولة، ولا يفلح القارب في اجتياز بحر الهجر، ولا يصل أبدًا إلى شاطئ الصفح، حتى انهارت القوى وتوقفت عن المحاولة.. خمس وثلاثون عامًا من عمر ارتباط اسمي باسمه في ورقة واحدة. ومازلت أعامل كطفلة وأشتم بأسماء البهائم، عمله كان تزيين حوائط الناس، لكنه صبغ حوائط قلبي بلون واحد أسود.

في كل عام، كان يشتد اللون وتزداد الظلمة. يا حبيبتي، لا تجعلي أوراقك سببًا في شقائك، ولا تستمعي لصوت قلبك فقط. لا تصدقي أن لغة العقل في حكايا الأجداد باطلة، ولا تتأففي من ذكر مقومات الحياة،

التي يحدثونك عنها، نحن حلبنا البهائم، وتحملنا من العمل أدوارًا في منزل الكنه، وعتب زوجات وإخوة، خبزنا الخبز، وذاب رونق الوجه مع ما ذاب من جليد العمر، جلسنا أمام الأفران وتعلمنا ما أقسمنا على ألا نتعلمه في عهود آبائنا، وصبرنا.. حتى إذا حل ضوء الصباح دلفنا إلى الأرض وزرعنا بأيدينا البذور. ثمة لحن يُعزف، وسعادة شاهقة مع كل زرع يكبر ويزدهر أمام عينيكِ.. سقينا من الترع.. وخرجنا بعدها إلى ميدان العمل الحكومي، خلعنا رداء الصباح وحصلنا بعد بأس الطلب على عمل يضمن معاشًا زائدًا لتعليم متوسط حصلنا عليه، لبسنا زيَّ المدن، ونزلنا المضمار، زرنا حلبة الرزق ومضايقات عمل المرأة، جربنا أصنافًا من البشر. بعضهم يلبس تاج الاحترام، والبعض الآخر لا يستحق سوى نعل حذائك.

أنجبت من البنات ثلاثًا وابنًا واحدًا، كويت قلبي ابنتي بشدة، دفعت بها لزوج في المال أغنى، اختارت هي الحب واخترت لها أنا الحياة. وأظن أنني محقة برغم سحب العتب والدمع الذي تخبرني بها عيناها ويعجز لسانها عن قوله؛ رحمة بي وبرًّا. فما يزيدني ذلك إلا سهامًا مسلطة على قلبي، ورغبة في الهرب من لقائي بها.

يا حبيبتي، انظري ليدي.. ستخبرك خشونتها كم أن القرار إما أن يجعلك مبتسمة لزمن أو يقتل زمنك.. ماضيك ومستقبلك. الحياة لها ألوان

عدة.. لا نراها زاهية في كل آن. لي ابنة تحفظ القرآن الكريم، دفعت بها إلى مضمار المسجد، وعلمتها أن تجد نفسها هناك، ثم أبهرتني دون أن أساعدها أو أمد لها يد العون.. كأن حفظها رزق، وكأنني أعلن من خلالها توبتي وندمي وكأنها هدية. تحملك للسماء بصوتها، وتملأ السحب بمطر الراحة، ووقع الذكر وبهجة الصوت، وشيء بداخلك يتردد غير مصدق حلاوة السمع، وظل الارتواء لقلوبنا العطشة للخشوع، وعين تدمع مع كل حرف. اعلمي جيدًا.. أن تتزوجي رجلًا حقيقيًّا، رجلًا يختبر صبرك ويحتمل حمقك، رجلًا تعيشين في ظله لا في ذله، رجلًا يملك حكمة حتى إذا حملتِ معه عناء الحياة شكرك وأمسك بيدك دون تقليل، رتبي أوراقك جيدًا يا مي، ولا تهملي ورقة دون أخرى.

الحياة لآليء منظومة، لا تفرطي عقائدها؛ فينفرط عقد حياتك هباءً.

أحبي وافرحي، ولا تجنبي عقلك؛ كي تكون شجرة عمرك أصلها ثابت وفروعها في السماء.

# السعادة أحيانًا شخص

شيء جميل هنا، شيء رحيم، ثمة سطور جيدة.. سكينة ما تجعلك تتعجب، ووقع رحمة في القلوب بينهم. الحب نعمة لا كلمة يمكنها أن تصف، الكلمات خادعة لا تروي ما يسكن قلوبنا، المهارة تتجلى في الأفعال، جودة الصنعة هنا تلقي بظلالها لتراها أنت جلية، وتقرأها في أعينهم، قراري في الارتباط به نبع من قلبي، لم أفكر كثيرًا.

كنت صغيرة ومازلت في عينه صغيرته التي يحرص على تدليلها، ويخاف عليها من كل شيء، سبعة عشر عامًا لا تجعلك حكيمة بالقدر الكافي.. تتشتتين، وتقفين حائرة، ماذا يمكنني أن أفعل؟ ماذا أعرف عن هذه الحياة؟، حتى عندما يسألونني.. لا أعرف الإجابة. أظن ببراءتي أن الزواج نزهة، وذهب يُلبس، فسح وخروجات، عالم مليء بالأحلام، بيت، حياة جديدة ملامحها بعقل طفلة صغيرة.. صدقيني، معه عشت حلمًا جميلًا ومازلت.

كثيرون يصفون الحب ويتكلمون عن واقع الزواج، وعن صدمتهم التي حلت عليهم بعدها، ينشرون أوجاعهم، ويرسلون سهام الشكوى،

وكأن عند البشر حلًّا لها، يتكلمون عن الضرر ولا يفكرون بالمنح التي حلت في عالمهم وأضاءته بنور السكن، المودة، والرحمة.

دوما كنت أراهم مخطئين، وألومهم؛ فالشكوى لا تضيف إلينا ولا تنقص منّا. لا أرى الدنيا بأعينهم، بل أري حبي لزوجي بعيني فقط، فأفتح نافذة قلبي وأخاطب الدنيا عنه ومن خلاله. أحدثه عن قلبي ويهمس لي بنسمات الحب التي تجمعنا، يعرف تمامًا كيف يكرم امرأة، وكيف يجعل منها جوهرة مصونة، رفقته فاقت كل وصف، ورحمته بي كانت عظيمة.

رجل يختصر المسافات، فيبحر إليّ، ولا يحتمل كدري، العمر كله معه، لم أغدو منه غاضبة إلا وقد بادر هو أولًا بالصلح في كل مرة، حتى حين أكون أنا المخطئة.. دومًا كان يسرع لإرضائي.. وأنا يأخذ الأمر مني وقتًا كي أنسى.

هاتفت قلبي ذات مرة.. لماذا؟! ألا يستحق منكِ أن تبادري أنتِ ولو لمرة واحدة؟!. أرنو إليه فتعلو وجهه ابتسامة التسامح، وأسعد أنا بما حصل من تغيير في طبائعي. نحن نتغير من أجل من نحب، يعشق عمله وأعشق أنا نكهة الحلال بجواره، والفضل الذي يعقب حلاوة هذا الرزق أن تضحك من قلبك. تلك حقًّا هبة.

يمر علي زواجنا حتى اليوم ثلاثون عامًا، ولنا من الزهور ثلاثة. زرعة نبتت بين قلبينا، وشجرة أثمرت بماء الحب.. حبي له شيء منسق، متقن..

كإتقانه لصنعته. هو حقًّا فنان، يعرف تمامًا أنواع القماش وأسراره، ويغزل بمقصه أنهارًا من التحف الفنية.. الخيوط كلها تعرفه ويعرفها، وحياكة ثوب عنده يحاكي بها أوقاتًا من الصبر.

ينبغي أن يكون بينك وبين مهنتك حبٌّ ما، كنت أساعده، وكان هو لا يكفّ عن طلبه لي بالراحة، كافحنا معًا، غزلنا خيوطًا من المحبة مع كل نتاج لنا.. كان قلبي يرقص من الفرح. قاطعتها قائلة: لاحظت خُلقًا عظيمًا في أولادك، حملني الأمر على الرجوع لكم مرة أخرى. أجابني زوجها: ورثت تلك المهنة عن أبي، وربيت أبنائي على أن الدكان كالجامع، لا مجال فيه للخطأ. هل يمكن للمرء أن يفعل شيئًا سيئًا؟! ربيتهم على الخلق، وغرست فيهم الأمانة والتقوى والخوف من الله. بنيتهم وبنيت نفسي معهم فحين أغيب أدرك تمامًا أنهم ليسوا بحاجة لرقيب؛ فالبطولة الحقيقية في هذه الحياة أن تحمل في جوفك ضميرًا.

كلية التربية النوعية، يزورني بنات كثيرات، أنجز لهن أعمالهن ومشاريعهن. آباؤهن يعرفونني، ويطمئنون عليهم عندي، حتى إذا انتهيت من كل طلباتهم وتأخر الوقت؛ لا يمكنني أن أتركهن يعودن وحدهن. أرسل أبنائي لهن حارسين؛ حتى أطمئن عليهن، في نظري هن كابنتي.

أجبته: الخير الذي تقدمه ولا تبحث بعده عن رد.

أجابتني هي في حياء: أجد جميل أثره في أولادي؛ فالسعادة التي تضعها في جيوب الآخرين ستعود لك يومًا لتختبئ في جيبك عندما تحزن.

أخبرها: أنتِ هادئة، وأشعر لديكِ بكثير من السكينة والرضا، أحلامك وأمنياتك. أخبريني عنها.

تقول: لا، لا.. أحلامي بسيطة، لم أفرح يومًا كفرحة انتقالي لبيت جديد، مال من هنا وقرش فوق قرش، وعملٌ رزقُهُ وُضِع بالكامل في قطعة أرض، بنينا جدران هذا البيت جدارًا جدارًا وغزا قلبي فرحة كبرى حين انتقلنا إليه؛ فبدايتي كانت في بيت أم زوجي، وهو وحيدها، ولها من البنات كثير.

حياتي معها كانت جميلة، تحب مجلسي. وحين أغيب عنها تشتاق إليّ، وتظل تسأل عني.. أين هي؟ أريدها.. فقط أريد أن تؤنس جلستي بوجودها. تخبرني دائمًا بأنني أريح قلبها، وبأنها عني راضية.

احرصي يا ابنتي على دعائهم؛ فتثمر شجرة الدعاء تلك، وستعلو وجهك دون أن تدري متى أو كيف! ستحصدين تلك النبتة.. صدقيني.

كانت تردد: (تُعمروا، وتُثمروا، وتَعْمر دارُكم، وتُؤنِسوا جارَكم، يُعطيكم اللهُ ويُرضيكم، وبأولادكم تَفْرحوا، تُنبتُ الأرضُ لكم، والربُّ يَبعثُ لكم، ويَجعلُ اللهُ اليابسَ في يديكِ يا حبيبتي.. أخضرًا، ولا تَحْتاجينَ لأحد، وللناس تُعطِي ولا تأخُذي).

تعجبت من وقع الكلمات، وظللت أسأل عن معنى الكلمات تفسيرًا، تلك العطايا من الثمر، ثمر الدعاء، في كل الصعاب كان الستر حليفي، ولم أطلب من أحد شيئًا، بل أعطي دائمًا.

أنا وزوجي يلجأ لنا الأهل والجيران؛ فلا نبخل بشيء عليهم، وأتذكر دائمًا دعوتها، وأنني بذلك في الجانب الأفضل، حتى عندما بنينا البيت.. جمعنا مدخراتنا، وشرعت إلى ذهبي، توقف زوجي عند هذا الأمر، ثم قال: انتظري حتى آخذ الإذن. دلف إلى أبي؛ يستأذنه، ويطلب رضاه في الموافقة على هذا الأمر، ويتعجب أبي منه ومن فعله!، فيُقبّله قائلًا: اذهب؛ هذا أمر بينكما.

يزداد حبي له ويزداد رجولة وكرمًا ورفعة في عين أهلي، بعت ذهبي، واشتروا لي بعدها ذهبًا أردت صهره؛ كي أصنع منه زهورًا أهديها لهم مرارًا، ويسعد قلبي برؤية ابتسامتهم من أجل ذلك.

يدور رأسي من كلماتها، وقلبي حائر من نبض روعتها، أنظر لها بإعجاب شديد، وأسألها طعم الشاي جميل جدًّا؟ قالت- بزهو-: ابنتي تجيد صنعه، وتجيد إخراجي من أحزاني كجراح ماهر يستأصل الوجع في لحظات. كل أم بمثابة عالم كبير من الاحتواء لابنتها، لكنها تحتويني بقلبها.. تقف عند حزني مهوِّنة، وعند ضيقي مخففة، وعند ضعفي فتحوله لابتسامة كبرى، أختبر معها وقتي، وأظل أفكر كيف يمكن للعطايا أن

تمنحك شيئًا جميلًا مثلها في حياتي؟. لم يكن لي أصدقاء، لكنني بدون صداقتها طفلة ضائعة، هديتي الأولى كانت منها، وقصائد قلبي كنت أجدل بها ضفائرها، أقتني «توك» الصغيرات وحلاهم، وأغزل من أعماق قلبي صورة في شعرها حتى إذا ذهبت للمدرسة؛ تعجب الجميع من روعة الغزل، وأصروا أنها من المؤكد كانت في مناسبة كبيرة، فلا أحد يجيد فعل هذا الأمر كل يوم من كل شهر في كل عام. ملابسها دومًا نظيفة مرتبة متقنة كنظم اللؤلؤ، وفستان عيدها أختاره بعناية، أدللها وأحرص على ألا تغادر الابتسامة عالمها. لا أحتمل أن يصيبها الكدر، ولا أقوى على رؤيتها حزينة أو متعبة. أشتاق لرؤيتها فيما يحيرني كما كنت أشتاق لتقرير يومها وأحداثه التي تخبرني عنها ونحن نعد أشكال الطعام؛ فنتسلى بحديث لا ينتهي. تعدني بأنها ستكون الأولى، ويداعبني أخوها وهو يحضر نتيجة المستقبل.. الثانوية.. السباق الذي ينقطع فيه أنفاسنا لهثًا قبل أن يسحق قلوبنا قلقًا على مستقبلهم.

أجابني المشاكس- أخيرًا-: افرحي يا طبيبة المستقبل. بكيت.. كما لم أبكِ من قبل، وأبوها لم أرَ دموع عينه فرحًا واضحة إلا ذلك اليوم.

خدمت الشجر؛ فأثمر، والحب؛ فارتوى، والقلوب؛ فازدهرت.

السعادة لا مقياس لها، هي تتجلى في الوجوه دون أن تدري، تخبركِ

البساطة بوجودها وتلمسين ضفائرها المجدولة مرارًا، تتعجبين من جودة النسق وقوة حضورها الخاطف، نجتمع على مائدة واحدة، ويسعد قلبي حين يتسابقون على أكلاتي، وتختفي آثاره في لحظات، وقت الرحب في العيد وصنع دوائر منتظمة يعلوها طحن قاسٍ للسكر، وملابس نظل نجود مضجعها، ونحلم بفرحة ارتدائها في اليوم التالي.

تفرح قلوبهم الغضة، ويفرح معهم قلبي كثيرًا، وأتذكر أبي وكم كان حنونًا رحيمًا، يحضر لنا ما نريد، ونرضى بما يعطينا، ولا نطالبه أبدًا بالمزيد.

نفرح لبعضنا، ونجيد إبداء الحل؛ فأنا آخذ ملابس أختي الكبرى، وأعطي ملابسي للصغرى، يحضر الجديد لمن يحتاجه لضرورة، ونقسم كل منا دوره في الحصول بكامل الرضا، نضحك من قلوبنا وتجدين سعادة بيننا.

أحببت الترابط الذي يجمعني بإخوتي، وسعادتنا بلمَّتنا الدائمة، وإيثار كلّ منا أخاه على نفسه، تمنيت بشدة أن يكون أبنائي مترابطين، لا يطيق أحدٌ منهم شيئًا على الآخر، ويخافون عليّ بشدة.. حين أمرض.. أفتح عيناي على حرارة دمع ابني الكبير، وهو يضمني إلى صدره في قوة، وأطمئنه أنا بأن كل شيء سيصبح على ما يرام.

اختار الرحيل، أراد أن يجرب حظه في الغربة، وفتحت أنا له الطريق، فلا يمكن أن أقف في وجه طموحه، وأمسكت بيد زوجي الحزين على

سفر قطعة من قلبه لوطن آخر.. قائلة: دعه؛ فسيعود فائزًا بحج بيت الله. غاب لعامين، وكانت رؤية الكعبة المشرفة لأول مرة على يديه، أهدانا تلك الزيارة، وأهديته أنا دعواتي مرارًا من أعماق قلبي رضًا عليه.

نحن حين نكبر تصغر قوتنا، تضمحل. الرحمة التي عاملتهم بها.. وجدت أضعافها منهم. الحنان لا يُشترى ولا يُطلب.. حتى ابني الأوسط دومًا كان مشاكسًا.. متعبًا في المذاكرة، وندمت بعد الكبر لأنني كنت أقسو عليه لمصلحته.. قائلة: ليتني كنت أكثر صبرًا، أعاند رغبته وأرسله لأستاذ ماهر؛ كي يأخذ درسًا عنده؛ فيهرب ببعض الحجج، ويخبرني: اشرحي لي أنت، أنا أحب شرحك، وأفهم منك. وأعرف أن تلك هي حيلته التي يهرب بها من حزم الغرباء.

تضحك قائلة: ذات مرة وجدني متعبة، وقدماي لا تقوى على حملي بعد يوم عمل شاق، أحضر ماء.. ووضع قدمي بها، وجلس بقربي يدلك أوجاعها؛ فتذهب ويذهب معها غضبي منه.

في كل عام كنت أحضر فانوسًا وألعابًا؛ فتحتفظ ابنتي بكل شيء، غرفتها شاهدة على هذه المواريث الجميلة، تحافظ عليها وتحرص على ترتيبها بأعمار سنوات الحب معهم حتى دخل لغرفتها حفيدة صغيرة. لا، هنا أصبح الخطر قريبًا؛ فيد الأطفال تصل لكل شيء، وبسرعة لا يمكن أن تتوقعها.. من الأفضل يا عزيزتي أن تختفي هذه الهدايا في صندوق محكم.

أجابتني الحبيبة: سأحتفظ بها يا أمي في قلبي ما حييت.

في الحب، اختر لقلبك ما يليق به، من يحافظ عليه، أما أنا.. فالحب اختارني، قدم إلي كهدية أعيش زهو فرحتها كل لحظة، ومع كل إضافة يبتهج قلبي، وأتذكر عطاء الله، وأسأل نفسي عن سر السعادة التي منحني الله إياها.. فلا صوت أجمل من صوت العائلة يضحك جميعنا في نفس اللحظة.

السعادة أحيانًا شخصٌ، وسعادتي حقًّا لأنني أحبهم.

ما دمت أشاهد بسمتهم؛ فالحياة بالنسبة لي.. لا تزال جميلة.

# انفصال

يشبه الأمر أن تتناول قطعه من الزجاج، لا يعد بمقدورك أن تصف مدى بشاعة الأمر، ما يتركه في داخلك بعد أن تبوح به.. بعض الحكايا كانت تصيبني بالدهشة، وبعضها كان ممتلئًا بالشجن بقلوب ظلت جريحة وصامتة، ولا ترى ذلك سوى في عينيها، ظللت فترة لست قادرة على وصف ما أصابني من غصة. تلك التي رأيتها جلية كهواء بارد يخترقك في حياء. الصقيع يمنحنا القوة أحيانًا، لكنه لا يغير حقيقة احتياجنا الدائم للدفء. كنت أتمنى ألا تتزوج، كل ما أحمله في جوفي لهما بعد هذا القرن عتاب لا أجرؤ على معاقبتهما.

الآن لم يعد المكان ولا الزمان مناسبيْن لهذا الأمر، بالرغم من حلول وقت العتاب، تمنيت أن أجذبه من يده، أن أعنفه، أخبره أنه أخطأ بتركها، أحدثه عن كل تلك الليالي التي بكيت فيها من أجله، أصف كم كان الأمر سيصبح رائعًا لو استمرت الحياة بينهما، أحدثه كم كان شاقًّا عليّ رؤية شخص آخر غيره في حياة أمي، كم كان الأمر سيختلف حينها، وكيف لقنني ذلك درسًا جيدًا.

إخوة يشتركون معي في نصف أسماء شهادة الميلاد، وفي الحب كلنا مفترقون، لسنا آلات كي نجبر قلوبنا على تجاوز الأمور بسهولة، بنضج، وأحيانًا بتقبل لواقع أصبح حقيقة في حياتي.

إنه الانفصال.. جملة تتردد في مواضع الدراما، ويسبقها القول المأثور.. الأبناء هم حقًّا من يدفعون الثمن. لمت أمي كثيرًا، نحن نبدع في جرح الضعيف، نمارس عليه ضعفنا بإتقان، ننسى أن كثيرًا من القلوب الغاضبة تمنت حياة أخرى مختلفة عن تلك التي رسمت لها، الانتقال لبيت أمي، وجود زوج جعلني تعيسة، خوفها الدائم منه، ضعف حيلتها كسرني، لكنه لم يجعلني أنسى كيف كانت توقظني ليلًا كي أتناول عشائي الذي لم أتناوله في حضوره!، وسؤال بداخلي: لم تكوني بحاجة لكل هذا العناء!!.

مرَّ الوقت حتى طلبت من أبي أن يعتني بنا، أخبرته أنه ينبغي أن ننضم إلى رعايته، الحياة مع زوجة أب تشبه كابوسًا من الضياع، أبي كان متفهمًا، يظن أن الرعاية تعني مأكلًا ومشربًا وملبسًا وحرصًا على تناول الطعام في الوقت المناسب.. حين تذوقت مع أبنائي مرارة الدراسة وعبء الاستماع إلى أوقات المدرسة، ومشاكل الأصحاب، وحفظ نص دراسي.

أيقنت كم كنا بحاجه لنروي كل أمورنا التافهة، الغياب كان مختلفًا، بدأ التأخر في الدراسة، تلك التي لا تعني شيئًا لأحد سوى من يحبك، ويتمنى لك النجاح، الذي يوفر لك مستقبلًا مرموقًا في مجتمع يهتم كثيرًا بالشهادات.

ظهرت أمي في حياتنا من جديد، أحست بذاك الكنز الذي بدأ يضمر ويموت في بطء، فأوراق الشجر حين تذبل وتتساقط لا يمكن إعادتها للحياة مرة أخرى، حاربت بقوة لنعود إليها ثانية، ظهر دورها، العودة لها كانت كفيلةً بعلاج الندبات، وربما التماس بعض العذر الممزوج بالتمني، ماذا كان يمكنه أن يحدث لو لم تتزوج؟، تمنيت لو عاشت لنا أنا وأخي. كيف كان سيصبح قلبي وقتها، وعتاب جاء متأخرًا، ولم أهمس به قط، عهدٌ نذرته على نفسي أني حين أنجب لن أعرّض أبنائي لما عاشه قلبي، وسأصنع قدرة أتحمل بها طبائع زوجي المستقبلي مهما كانت.

حين تزوجت، عاملني كأميرة، كرم في كل شيء.. حبه، حنانه، ماله، والأفضل من كل ذلك.. رعايته وقلبه الحنون، الحب يعلمك التضحية، والرحمة تجعلك تدرك أنه حين تحب.. تستمر، وحين تكره.. يصبح الأمر كبركان من الأسى لا يمكنك تحمله.

الرحمة بهما كانت تعني لي أن أرحم دموعهما تلك التي أخبروني مرارًا كم تمنيَا ألا يحققا لي كل هذا البأس، اكتفيت باحتضانهما فذاك الشيب الذي كسا رأسهما أخبرني أن الصمت الآن.. هو الأبقى، وربما الأفضل.. لنا جميعًا.

# الفرنسية والعتبة

خرجت من الماء غاضبة، توجهت إلينا بالعتاب، لامت طريقتنا وعبرت عن استيائها الشديد، قالت في أسًى: لماذا يفعلون ذلك على الشاطئ؟ أنا أملك كيسًا بلاستيكيًّا، أضع فيه كل شيء لو وجدت الخطأ أقوِّمه، لا أقلد أحدًا، نحن نعرف الصواب.. فلماذا نصر على فعل الخطأ؟! لماذا ينبغي أن يكون علينا رقيب؟، أبنائي يقولون: أمي، الجميع يفعل ذلك؛ لماذا نحن لا؟ وأنا أخبرهم بعنف: لسنا نحن كذلك، لا ترتكب الخطأ بدعوى أن غيرك يفعله. أنت رقيب ذاتك، ديننا يحثنا على الضمير والنظافة. الدين تصرفات.. الله جميل يحب الجمال. كيف يمكننا أن نقتل بأيدينا جمالًا كهذا؟. كيف يمكننا أن نشوّه الأشياء بتلك الطريقة.

أرجوكم حافظوا على بلدكم.. بلدكم جميلة، لا تفقدوها، لا تجعلوا كل شيء مشوهًا، أنتم فقط بأيديكم إصلاح كل شيء. الأمور التي ترغبون فيها بشدة لن تتحقق هكذا، أنا أرى أن الأم هي الأساس، أعنّف أبنائي بشدة إذا صدر عنهم مثل هذا التصرف، واليوم أرى كثيرًا من الأمهات لا يلقين بالًا لأي شيء.

لا أترك غرفتي في الفندق لأحد لينظفها، أعلمهم أن ينظفوا مكانهم، هكذا علمنا أبي، وهكذا أغرس فيهم، حتى لو كنت أملك مال قارون.. عليهم أن يتعلموا الاعتماد على الذات، وأنا بذلك أضع لهم منهاجًا للرقي، فإذا ارتقوا صلح حالهم وحال مجتمعهم الذي يعيشون فيه. وقفت منبهرة عاجزة عن الكلام، ما هذا؟.. ما تلك الطريقة؟.. كيف تفكر بتلك الطريقة؟ أجبتها: أنتِ محقّة.. علينا أن نفهم، وأن نجعل أبناءنا هكذا؛ كي يرتقي مجتمعنا، لكن لهجتك ليست مصرية.

قالت لي: انتظري حتى أمكث بعض الوقت، وستجدين أن اللهجة تحسنت. أنا فرنسية من أصل عربي جزائري، أنا من قبائل الجزائر العتيدة، نشأنا على احترام الدين، والعمل والاعتماد على الذات، وأن تحب المرأة بيتها وزوجها، وأن تتحمل العبء وتطيب الخاطر. لم أرَ الجزائر لكنك من خلالي ترينْها، هي تعيش في كياني لكنني لم أعش فيها.. ولدت في فرنسا، وأوروبا موطني، تزوجت مصريًّا.

ثم نظرت لي بخبث قائلة: من المحلة، شوارع المحلة داري، أركب الميكروباص، وأخبر السائق أن ينقلني كي أشتري ما أريد، أحب التبضّع، وتعجبني الأسواق الشعبية. أترين.. هناك.. ركبت القارب.

تميل لي هامسة: كان يريدني أن أدفع خمسين جنيهًا، يظنني أجنبية،



أظهرت له لهجة أبناء شبرا، وأخبرته أنني أعرف العتبة أكثر منه، ولن أدفع سوى خمس وعشرين جنيهًا.

تضحك قائلة: أعمل في وظيفة كبيرة، إذاعات فرنسا كلها تعرفني، أسافر تبع العمل إلى كثير من البلدان، وأحضر الكثير من المؤتمرات، أكره المولات بترفها الذي لا يبهرني، وأعشق البساطة بتفاصيلها، أحب الناس، وأجد متعة في النزول للأماكن الشعبية، والفصال والشراء.

قاطعها صوت مصري من الخلف، قائلًا: نحن ننتظر منذ مدة، هل بإمكاننا الجلوس مكانك. سألها: أنت من فرنسا؟

ثم تحدثا طويلًا باللغة الفرنسية، ودار رأسي بينهما.. وقفت كالهواء؛ فأنا أجيد لغات محافظات مصر بأكملها. ضحكت في جوفي، ثم التفت لوجهيهما؛ حيث احتدم النقاش، وبدا عليهما ملامح الاختلاف؛ فكلاهما كما فهمت ينتمي لمكانين متعاكسين من شاطئ بلدهما، التفتت لي مكملة: لا يعجبني أصحاب الأكتاف المتعالين، أجد نفسي أنفر منهم، المال الذي أملكه لا يعطيني الحق في أن أتعالى، أقابل كل الأجناس، يلوم الكثيرُ طريقتي البسيطة في التعبير، يمكن أن تغير فكر أمة.. ويمكن أن تهدم أمة بفكر.

سألتها: لم تزوجت مصريًّا.

أجابتني: أحببته، تعرفت عليه في فرنسا، كنت أعلمه اللغة الفرنسية، علمني هو العربية.

تضحك قائلة: وتزوجني في النهاية، قصة زواجي تستطيعين وصفها بكلمة واحدة.. وهي النصيب.

بادرها سؤال آخر من امرأة بجانبنا كانت تنصت بإعجاب، ويبدو من ملامحها أنها في أواخر العقد الخامس: استطعت أن تتكيفي مع الرجل المصري!، أنت فرنسية وثمة أمور كثيرة مختلفة بين العالمين.

أجابتنا: الأمر لم يكن سهلًا، سأقول لك شيئًا أؤمن به بشدة.. أنا ألوم أي امرأة تترك أولادها بلا توجيه، وأظن أن نجاح الأسرة ينبع من الأم، في أوروبا نعيش حياة أسرية مترابطة صدقيني كل ما يتداول في الأعلام ومواضع الدراما كلام غير صحيح. أنا ضُربت كثيرًا كثيرًا جدًّا.. زوجي كان مزاجه صعبًا، كانت الأمور بيننا ليست وردية، وصبرت. أين أذهب بأربعة أولاد؟ ليس احتياجًا له، لكن احتياجًا لوجود أب في حياة أولادي، لا يتعلق الأمر بي دائمًا، كنت أنظر للأمور بعدسة أخرى.. أرى أن ثمة علاقتين في حياة كل رجل وامرأة.. علاقتهم كزوج وزوجة، وكل ما بينهما من مودة أو بأس، وعلاقة أخرى بينهما كأب وأم يمارسان دورهما من أجل مصلحة واحدة، هو يضربني، متعبة معه.. هذا شيء.. واحترام أبنائي له شيء آخر،

لا يجرؤ أي منهم على فعل شيء أضعه دائمًا في المقدمة أؤصل لديهم أن هناك أبًا.. عليك الاستئذان منه في كل شيء، احترامه.. توقيره.. الاستماع لنصحه، وأن دفة القرار في يده، أفصل جيدًا بين غضبي الشديد منه.. وبين نفسية أبنائي؛ كي لا يتحطموا. فأنا أريد تربية صحيحة، وعقولًا تنمو بالمجتمع؛ فتصلحه، وينمو بها فلا تفسده. فكرت في الانفصال، والأمر سهل؛ فأنا لست محتاجة له ماديًّا، لدي عملي ومالي وكل شيء، لكنني لم أفكر في ذاتي أنا، المهم أبنائي.. الأفضل لهم أفعله. اتركي الكلمات الفارغة التي يخبرون أبناءنا بها في التلفاز وأفلام الوهم، في أعمال يقولون عنها إنها واقعية، الأسر في أوروبا متماسكة، ديننا جميل، هم أخذوا جميل أثره.. وطبقوه، فهموا روعته وطبقوها في حياتهم، ونجحوا ونحن غفلنا عن ذلك. ليتنا ندرك هذا الأمر، لكن كثيرًا من الأشياء اختلف حالها.

رددت قائلة: أنت محقّة، يظلون يرددون.. كرامتي، كبريائي، وكل هذا لا شيء أمام الأبناء، ربتنا أمهاتنا على ذلك، واحترمنا حديثها وطبقناه. لا سعادة مضيئة أفضل من أن تملكي بين يديك أسرة متماسكة، وقيمًا أنت الزارع لها، ستنبهرين حين يمر عليك الوقتُ وأنتى تختبرين روعة جني الثمار. أقول لك.. أوقات كنت أضعف، أخبره أنني لم أعد أحتمل، لمَّ حقائبَك.. غادر عالمي.. أوصلته إلى نهاية الباب، دفعت حقائبه للخارج

حين اعترضني. الابن الأصغر وقف بيننا، وبكى قائلًا: أبي، لا ترحل. نسيت نفسي من أنا حتى أكون أنانية إلى هذا الحد!، أمسكت بيده، وقلت له: لا تغادر، ابنك الصغير يحتاجك. توقف الأمر، بعد فترة.. دخلت بسببه إلى المشفى، ضربني تلك المرة حتى كسر ذراعي، قررت في المشفى أني سأرحل، وسيتم الطلاق. خرجت في غفلة.. وجدته يستند إلى الحائط ويبكي.. يبكي كطفل من أعماقه، فتحنا باب السماح.. ندم ندمًا شديدًا على كل لحظة وجعٍ بيننا، ويبدو أننا أخذنا وقتًا في فهم بعضنا، عاهدني.. وحافظ على العهد. وأدركت بعدها كم كان الميثاق غليظًا، اختلفت الحياة، ثم ضحكت وقالت: مرت سنوات كثيرة لن أخبرك عددها؛ حتى لا تعطيني سنًّا كبيرًا، فأنا وقفت عند سن العشرين.

رددت ممازحة لها: أنت تملكين قلبًا ضاحكًا، وحنانًا عظيمًا.

قالت لي: صدقيني، الصبر ثم الصبر، بعد كل تلك السنوات لست نادمة على شيء، بعد الإنجاب.. على كل امرأة أن تفكر فقط في أبنائها، سأقول لك شيئًا: لم أجعل أمي تتدخل يومًا في حياتي، ولم أخبرها مرة بما يحدث لي. حبي لأسرتي ورغبتي في أن يكونوا مترابطين بالنسبة لي هو الصف الأول في مسرح الحياة.

قاطعتها: أم زوجك.. كيف كانت علاقتك بها؟

أجابتني: حاولتِ التدخل في طريقة تربيتي لأولادي، أوقفت ذلك الأمر، ووضعت حدودًا دون جرحها.

فاجأنا سؤال من الجميلة ذات العقد الخامس بسنوات تعقبه، قائلة: يبدو أنك لم تحبينها.

أجابتها: الدين هو المعاملة، حتى لو لم أحبها هي أم زوجي، أمه في حياته قطعة منه، كيف يمكنني أن أبتر ذلك الجزء؟ هذا ليس عدلًا. هي ليست سهلة، لكنني تعاملت مع الأمر بحكمة. أخذتها لفرنسا بعد وفاة والده، ونعيش معًا أسرة كبيرة، يتخللها بعض المشكلات، ويصب نهر العقل في جدول وردي؛ ليصبغ حياتنا بنعمة الارتباط وأنس اللمة، حبي لهم يتعدى كل وصف، ورغبتي في الحصول علي حياة كريمة لهم وإيداع مفهوم الحب والاحترام لأبيهم كان هو المقصد. حقًّا عانيت معه في بادئ الأمر، لكنني انتصرت في النهاية. حاربت معه مرض السرطان، جبت معه أرجاء العالم بحثًا عن علاج، ذقت وجعه كما ذاق مرارة الدواء، ودلف لجوفي وجع الجزع، وألم بتر جزء منك مرة بعد مرة، المرض الذي يغير نظرتك لكل شيء يجعلك تعيد حساباتك، وتلوم نفسك على قصائد الملل التي نسجتها في عهود الماضي، وتسأل نفسك.. كيف كنت تافهًا إلى هذا الحد.

قلت لها: أبهرتني من علمك العربية.

ضحكت، وقالت لي: أقول لك زوجي من المحلة، بت أتقن اللغة أكثر منه.

ضحكتُ كثيرًا، نظرت إليها معطلة إياها عن الذهاب: سؤال أخير.. أبناؤك هل سيتزوجون من فرنسا.

قالت: لا. خط أحمر، أخبرتهم بأنني لن أزوجهم سوى لمسلمات، وأن الدين عنصر أساسي.

قلت لها: المال، المستوى الاجتماعي؟.

قالت: المال ليس شرطًا. لابد أن تكون طيبة، وأصلها طيب، وعقلها يفكر بطريقة جيدة؛ كي تكمل المسيرة، وترفع من المجتمع؛ فتصلحه، تضيف إليه ويضيف إليها.

ودعتها، وتبادلنا أرقام التواصل. أثارت إعجاب كلِّ من استمع لها، وخرجت من هذا اللقاء بحكمة.. أن الحياة طريق شاسع، إما أن تختار طريقًا تضع فيه بصمة خاصة، وإما أن تختار طريقًا تصل في نهايته لطريق مسدود. عندها، ستكون وحدك الخاسر.

# الفصول

قتلته، ذبحت ما كان بينهما بخنجر صدأ، رحلت بعاصفة كما دخلت حياته بعاصفة، خلفت وراءها بركانًا ثائرًا في قلبه وعنادًا أكبر، رغبة في الانتقام حين تتملكك لا تبصر بعدها شيئًا، يقتلك الحب ولا يمنحك وقتًا للسلام. عاندها.. أصرت هي على الطلاق، وأصر هو على كسر كل ما هو جميل بينهما، كان يحبها وله منها أربعة أولاد، كان جميلًا وأطفاله يحملون من وسامته الكثير، حين تختار أن تبيع السلعة إما أن تكون محتاجًا لثمنها، وإما أنها أصبحت لا قيمة لها في نظرك.

أوقات الحب ولحظات ميلاد كلمة أمي، عين طفل صغير، ونطق الكلمات الأولى في عالم كبير، أول وقوع لخطوةِ صغير وسعادة طفل بلعبة جديدة، لحظات الأمومة، وما تحملها من نعمة كبرى، وبعد كبير عن مفهوم السراح الجميل.. الطلاق يصبح حلًّا في بعض الأحيان، لكنه يشبه البركان فيما يصنعه بالأرض، يحرق كل شيء، كل ما هو جميل، وكل ما يمكن أن يكون تاريخًا رحيمًا بيننا.

ثمة ثمن يُدفع، وثمة قلب وعين تدمع، حملتني قدمي لزيارة دكانه.. ذاك الذي يبيع فيه ملابس للأطفال، ودمًى للصغيرات، تغير الزمن منذ زرته آخر مرة، يمر بك الوقت دون أن تدري ليخبرك بحقيقة استمرار الحياة. ظل- وقتًا طويلًا- حديثًا للمدينة بأسرها، يتوارى من نظراتهم، يعلم جيدًا أنهم يتهامسون بحكايته، ويتحاورون عنه وعن ما فعلته زوجته به، التشابكات العاطفية من الممكن أن تؤدي لانهيارات عظيمة، كان يريد أن يلحق بها أذى عظيمًا. الرحلة المعتادة بين محاكم الأسرة وحوارات المحامين، محاولات الطلاق والحرب الدائرة.

حين صدر قانون الخلع.. كانت هي أول من حصلت عليه، بعدها تزوجت ممن قالت إنها تحبه، تركت خلفها الأبناء، لم يعنِ لها شيئًا وجودهم في حياتها، طُلّقت، وطلقت وجودهم في عالمها إلى الأبد، لم تفكر أن تسأل عنهم أو عن أخبارهم.. وكأن الأمر لا يعني في وجدانها شيئًا، اختارت الرحيل وبقي هو معهم، ضمهم إلى صدره في قوة، اختار أن يملأ عالمهم ووجدانهم وعواطفهم، كان أبًا وأمًّا وصديقًا.

رأيته وقد ظهرت التجاعيد على وجهه وحول عينيه، علمت بعدها أنه تزوج هو الآخر وأنجب طفلين صغيرين، تزوجت البنتان الكبيرتان، أما الابن الأكبر فسافر إلى بلاد الغربة وحين يعود يقضي أجازته في دكان

الوالد؛ فلابد أن يرتاح من شقاء العمل قليلًا، يحضر الهدايا لأهل بيته ويحمل في قلبه وعينه وجع فراق أمه لهم، تربية جيدة تعرفها حين تزور دكان العم غالي بعد سنوات كثيرة، تجد ابنه يعمل مكانه لا يلتفت ليرفع عينه في وجه زبونه، ولا يضايق أحد بكلمة أو حتى إشارة. ثمة علامات تخبرك كيف تربى هذا الشاب، وهنا حياة تعلم تمامًا عنها أن بها كثيرًا من الرحمة، كثيرًا من التوجيه وكثيرًا من التوبة، الإفاقة من الغيبوبة تجعلك توجه طاقتك ومشاعرك لتغرس في قلوب أبنائك الخلق.. الدين.. وفضل الحياء. وحين تعلم أن ما كان في حياتك من أسًى ما هو إلا درس تتعلمه، إما أن تخرج منه أقوى أو أن يسحقك ويسحق من تحب في النهاية.

هل يمكن للحب أن ينتهي بتلك الطريقة؟ أي فراغات كانا عنها غافلين!! كلاهما.. وكلاهما فقط.. يعرف الحقيقة، فنحن لا يمكننا تمزيق ولو صفحة واحدة من صفحات حياتنا، لكن بإمكاننا كتابة فصول جديدة في الكتاب.

استخدم ابتسامتك لتغيير الحياة، ولا تجعل الحياة تغير ابتسامتك؛ فالحياة ما هي إلا.. فصول.

# سطر حزين

كف اليد صغيرٌ، يلزمنا قبضة أكبر. وصف أدق لحجم قلوبنا، يلزمنا مساحة شاسعة كي تتسع لكل هذا البأس، قلبك الغض يظن أن النضج لن يحل عليه، يفضل أن ينتظر السفينة كي تبحر له، ويرفض أن يسبح باتجاهها.

حين أقف في مطبخي أحاول أن أخترع، أزن الأمور في عقلي، أكيل الموازين، أجود الطهي، وأحرص على وضع المقادير المناسبة؛ حتى إذا فشلت الطبخة ابتسمت، وحاولت إعادة المحاولة مرة أخرى، نصيحتي لك لا تيأسي، لا تستسلمي بسهولة؛ الحياة محاولات متكررة، تجارب، أنت لا تكتسبين الخبرة من فراغ، ولا تملكين هبة الحكمة دون أذى، الشوك الذي يصيب روحك ويدميك راغبًا بشدة في إضعافك.. أنت وحدك من تسمحين بهذه المسألة. أجبتها.. لا، أنت تغفلين عن تفاصيل كثيرة، الأمر ليس بتلك البساطة، ثمة وقت تنهارين، تنظرين إلى السماء فلا ترين ما يخبرونك به من جمال، لا نملك جميعًا قلوبًا قوية مثلك، ولا تفاؤلًا ملحوظًا كالذي أراه في عينيك كل صباح، أنت مشرقة.. ولا تكفين عن الضحك، ونحن نعلم جميعًا عن قلبك وعن شقائك.

تضحك وتخاطبني: أنت ما زلت غضّة، غدًا.. يغدو قلبك صلبًا قويًّا، غدًا تنسجين حكايا عن الصبر، وتتعجبين من تحمل الذكرى التي ظننت دومًا أنها لن تغادرك.

منال، ابتعدي عني، أنت لست واقعية وأنا لست مثلك، تصر على إكمال رأيها، وتجذبني قائلة: أمي وأبي ظلم كلٌّ منهما الآخر، أو ربما ظلم أحدهم نفسه؛ بسوء اختياره، اختار أبي أن يكون له بيتان، تزوج بأخرى وأنجب من كليهما ثلاثة أولاد، أمي وزوجة أبي كانا يشتركان في عدد الأولاد، وفي جوار المسكن، وفي أبي، الذي لم يعرف مفهوم العدل القرآني، ولم يفهم ذلك من سطوره، كان قلبه يميل إلى الأخرى، يحضر نتاج الأرض فيدلف إلى بيت الأخرى ضعف ما يدلف إلى بيتنا بعشرات المرات، وهي لم تتعلم أن تقاوم الضعف، ربما أو قلة حيلتها كانت سببًا.. لا أدري، لكن ما أعرفه جيدًا أن الحب الذي ينقرض بين قلبين لا يحتاج سوي زلزال عنيف، يعيد إليه جذوته، أو بتر أعنف يقرر فيه الطرف القوي.. قرار الانسحاب.

استجاب لطلب زوجته، طلقها.. وعُمْر أخي الأكبر ثمانية عشر عامًا، ربما تأخرت استجابته لرغبة زوجة أبي.. لكنه في النهاية استجاب.

تضحك قائلة: لا تكف المرأة عن المحاولة، تعرف في النهاية كيف تحصل على مرادها، حتى لو استهلك الأمر منها أعوامًا، لا أقول إن أمي

كانت حنونة، لكنها عكست حبها لنا في صورة قسوة. خوف شديد جعلها دائمة القلق، وصوت عنيف وبكاء هستيري مرددة.. أتريدون أن يأكل الناس وجهي.. أن يعايرونني بأنني فاشلة، وأنجبت أبناء ليسوا أكفاء!؟

علمتنا الخلق، وحرصت على إيصال كلٍّ منا لمراحل التعليم، الذي يخلو من مال يصرف على الدروس الخصوصية، مراحل كانت تتخللها القسوة المضطرة، فلعب دور الأب والأم ليس أمرًا هينًا، كنت ناجحة، أقلب سطور مسرح التعليم فأفلح، وأغزل الكلمات فينبعث الحل قادمًا لي مختالًا؛ فأجده وقد ترجم أمامي على ورقة الإجابة.. درجات جيدة تؤهلك للالتحاق بسباق الثانوية العامة؛ فيعترض أبي ويلحقني بالثانوي التجاري، درجات جيدة في نهاية عام الثانوي التجاري؛ فيتشكل حلم الالتحاق بكلية التجارة للحصول على درجة البكالوريوس فيعترض. درجات جيدة.. فألتحق بمعهد... المهم أن أملك بين يدي مؤهلًا متوسطًا، في كل مرة.. كنت أستسلم، وكان حجته ألا أكون مثل إخوتي الذكور، كيف لي أن أملك تعليمًا أو مسمًى أعلى. الشهادات الميلادية تظلمنا أحيانًا تكتب أسماءنا وتخبر العالم بصلة الرحم، دون ذكر البأس المتجسد بأوجاعه في القلوب.

كنت صغيرة أتعلم وأعمل، عملي في محل للملابس كان يدرّ عليّ دخلًا مناسبًا، كانت حجته في عدم إكمال تعليمي المال، وحين أوفره تصعد

حججٌ أخرى من المخبأ.. المهم أن يتم ما تريده زوجة أبي في النهاية، لم أصعد درجات العلم اختيارًا، لكنني صعدت درجات الحياة وتفوقت، نزعها من يدي أخبرني أنه ينبغي أن أخلع ذهبي الذي زيّن شقاء سنوات من العمل وفعلت له ما أراد.

وجدت أمي التي ظننت لعمر أن قسوتها ابتلاء، وبأن بقعة الأمل التي تتعلق بها طفلة صغيرة لا وجود لها حين كان عقلي صغيرًا- وجدتها وقد تناولت عباءتها، وذهبت إليه، اقتحمت عليه كهفه الحصين، وأخبرت زوجته في عنف أن تسكت حتى لا تريها عنف الحليم إذا غضب. هذا ليس حقك، هذا كدها وتعبها، في النهاية.. عادت بأساوري تلك التي تزين معصمي إلى الآن.

ترفع أكمامها في زهو وتريني إياها، وقلبي يتملكه حيرة أكبر: منال، أرى فيك قوة!. أنت تحتاجين لبحث يخبرنا كيف يمكننا أن ننظر للعالم من زاوية أخرى، تسعدنا لا تشقينا، فترفع منا ولا تغرقنا.

أجابتني: حل اللغز بأيدينا، المهم ألا نستسلم، بحثت عن عمل بمؤهلي، دخلت ديوان العمل الحكومي، ورضيت بعقد مؤقت لسنوات عديدة حتى حصلت على التعيين، لم أختر الشقاء لكنني أملك الإرادة.. الصبر والمثابرة نقلاني إلى حديقة أوسع، طفلان جميلان يجسدان الجزء

الأروع في عالمي الجديد.. ماء وسكر وبعض الشاي، عمل زوجي ربى ولداي وجعلني ألبس جيدًا، وأحرص على أفضل مأكل ومشرب لأسرتي الصغيرة، حياة تنظمين وقعها وتجدلين ضفائرها المنتظمة، ويقف الله معك في كل الخطوات، يرزقك القوة وينعم عليك بالصحة، وتملكين بركة في الوقت الذي تبدئين خيطه من بزوغ الفجر، تتعلمين الضحك وتتملكك سعادة الانتصار المتجسد في النجاح، أحمل أطفالي ويعرف سائق الحافلة موعدي، أحتل الكرسي بجانبه، وفي العودة.. أحصل على الكنبة الأخيرة فأدفع حقها كاملًا؛ لي مقعد وينام أطفالي عليها كاملة، حتى إذا عدنا.. قام كل منهم إلى واجباته فأداها، وحل موعد العشاء؛ فيلتف الجميع حول مائدة الرزق، وفاكهة أبيهم فرحين بها، وقتي أجيد ترتيبه ويحتل أبنائي فيه مقامًا أكبر، أجازتي الأسبوعية أحضر فيها طلبات البيت، وأجود الطعام بشراء أفضله، فلا وجود للمجمدات ولا المواد الحافظة؛ فهي تؤذي الصحة وتضعف المناعة، أعترف.. لقد بدأت حقًّا في الحصول على بعض الراحة، أبي أرسل له وقتًا من الود والزيارات، أدعو له وأسأل عليه من حين لآخر، ألتمس له العذر أحيانًا، وأقيد نفسي عن الغضب كلما تذكرت أوجاعي معه.

غزلت من تلك الأوجاع ملابسَ أضفت دفئًا على شتاء قلبي، ومنحتني قوة لأبتسم، في كل أجازة صيفية كنا نهرب إلى الريف، وأخوالي يجعلوننا نتسلى

بزراعة الأرز، أصعد من الحقل ولفائف الطين تغزو أعلى قدمي، وتبلغ منها أمكنة كثيرة، أصنع من روث البهائم دوائر منتظمة؛ فأتعجب من دقتها المتماثلة، وأسلي نفسي بزهو قدرتي على العد لأنني متعلمة، واليوم لا تفارقني الابتسامة، أضحك كطفلة، وأحول الواقع من كد وتعب إلى حب وسكن.

أجبتها: أنت غريبة!!، أجد عندك جوابًا لكل سؤال، وأسمع منك أمثالًا غريبة، أنت مرجع تراثي.

أجابتني: حصلت على الأمثال من أقوال الجدة، وألفت أمثالي الخاصة من الحياة.. حتى إذا صدر عني مثل وسمعتموه.. ظننتم أنه من عبق الماضي، وضحكت أنا عليكم، اضحكي يا حبيبتي فلا ضريبة على الابتسام. أستغفر الله العظيم.. جملة كانت ترددها أمي دائمًا، وكنت أرددها خلفها دون وعي، واليوم هي سر سعادتي، حبات العنب لا أتناولها إلا وقد أحصيت بعددها تلك الجملة، وطريق ذهابي يوميًّا أحصي فيه وجوه الناس عَدًّا، حتى بلغ الأمر وجوده في دمي وكياني.. استغفري الله دومًا، ولا تستسلمي حتى لو أطفأ العالم أضواءه كلها في وجهك؛ لأن ثمة نور آخر يرعاك.

الحياة قصة جميلة.. اقرئيها حتى النهاية.

ولا تتوقفي أبدًا عند.. سطر حزين.

# الطاهي والحب

الصحة، الحب، عطايا.. أنظرُ لمن هو في سني، ولا يمكنه- مثلًا- أن يمشي، أو من لديه أمراضٌ، وفمه لا يخلو من مرارة حبوب الدواء طلبًا للشفاء.

نحن ننظر للنصف الذي ينقصنا، ونغفل عن رؤية العطايا، ومنحها حائطًا معلقًا يذكرنا بقيمة ما نملك، علمتني الحياة أن أنظر دائمًا لمن هو أدني مني؛ كي أبصر عظم ثمن ما أملكه، وفي قلبي أحمل رضًا عن كل شيء، لا أفعل كالكثيرين الذين يرددون ما ينقصهم.. ويتناسون ما يملكونه.

دلفت إلى عالم الطبخ، مهنة إن لم تعشقها.. لفظتك، وإن لم تخاطبها.. خاصمتك، وإن أهملتها.. نسيتك، ونسيت ما كان بينكما من تاريخ، تختبر فيها تجاربك المتكررة، وتثقلك هي بميزان المكيال اليدوي، تعرف عنها وتعرف عنك، تحاورها، وتدرك ما ينقص طعامك دون أن تتذوقه، تنشأ بينكما علاقة خاصة، وحب ما لا يعرف عنه أحدٌ سواك. لكل مهنة وقعُها الخاص، ونشترك جميعًا في الحصول على نفس المهنة في بلد آخر.

سافرت إلى عمان، بدأت حياتي بخطوات بسيطة في عالم شاسع، البلد الواحد.. ألوانه كثيرة وثقافته شاسعة، وأذواق الناس تختلف، وأنت تبحر في الألوان تطير كنحلة بين المدن، وتثقل موهبتك بقوة الملاحظة، وعمق الخبرة.. دومًا كنت أعشق الطبخ، وأبحث عنه كما يبحث عني، طرت إلى ليبيا، وأبحرت إلى مدنٍ كثيرة.

في كل مرفأ كان لي على الشاطئ وقع جميل، وحين عدت أوكلت مهمة اختيار زوجة إلى أهل الخبرة، يفصل بيننا ثلاثة عشر ربيعًا، وأنظر إليها وكأنها طفلتي، أخبرها بحديث طيب فتبتسم في خجل يأسرني، أغازلها برقة، فتحمر وجنتاها ويتراقص قلبي على وقع عينيها التي تهرب من رؤيتي، خجل وحياء يخبرك كم أن الغصن غضٌّ!، كم أن القلب طاهر، قلب لم يعرف الحب قبلي، قلب يختصر عالمك في ابتسامة رقيقة، ويطرد عنك أوجاعك الجبلية بلمسة رقيقة، كلمة حب تذكرك به، يقين بقول يخبرك فيه بأن الأمور ستصبح أفضل، سكن حين تعود إليه يضيء جوانبك، ويبعث برسالة تقول: ابتسم، لقد رزقت حبها، حملت حقائبها كما أمرتها، غادرت معي إلى ليبيا، رحلنا عن الوطن إلى بلد كبير علينا، وقلبانا معلقان بأحباب تفصلنا صحراء كبيرة عنهم، مكالمات الهاتف وقتها كانت من شهر إلى آخر، ورسائل البريد تلعب دورها.

مع كل رسالة تصلك.. يقفز قلبك فرحًا، ومع كل رسالة تغادرك تقف مكتوف الأيدي عن ذكر أوجاعك؛ خوفًا أن تصل إليهم فيزداد شقاؤهم وخوفهم عليك، تخبر قلبك المرهق بأن يتحلى بالعقل، وتجد قلب نصفك الآخر يحتويك، يطبب أوجاعك، يمحو كل بأس بداخلك، فتغمض عينيك شاكرًا.

سبع سنوات لم أزر فيها الوطن إلا مرتين، وهي رفيقة الترحال دون شكوى، عشرون عامًا فصلت بين زيارتي للعمرة وقت كنت في عمان، وقتها كنت شابًّا أضج بالحيوية، وأنطلق كما تنطلق الطيور مغردة في سربها، أقف مندهشًا عند كل مشهد أراه، أحدث نفسي ما بال هؤلاء؟ لم هم بهذه الطريقة يبكون ويتضرعون، وأنا لست مثلهم في شيء؟، وأتساءل لماذا أعوام العمر التي مضت؟ عشرون منها جعلتني أبكي بشدة الآن، وحافلة الوصول إلى المشاعر لم تدخل بعْدُ حدَّ الحرم، فلا أحد منا يخلو من الخطايا، بكائي كان كبيرًا، وشوق اختلف وقعه في قلبي.. أنت لا يمكنك وصف الخشوع، هو أمر لا يوصف، سعادتي كانت كبيرة.. وأنا أعمل في خدمة الحجاج، عمل بالليل وتواصل بالنهار، نعد موائد جمة من كل صنف حتى إذا انتهى اليوم؛ أخذنا ما تبقى ووضعناه في وجبات جاهزة، ووزعناه على الحجاج.

مع كل ابتسامة رضا تجد نفسك محلقًا من السعادة، فنتاج عملك تحزن عليه لو ألقي، وتفرح كطفل يضحك من أعماقه حين لا يتبقى منه

ذرة، وحين يسعد الجميع بوقع أكلة، الليل تواصله بالنهار، وتعجز الأقوال عن وصف مدى سعادتي وقتها بتلك الفترة.

العمل عبادة.. كلمة أغرسها دائمًا في أبنائي، المكافأة التي يرسلها الله لك، وتفكر في حمايتهم وتختبر فرحتك بنجاحهم، تقتسم وقتك، وزوجتي تحمل عبء المسئولية، كانت أهلًا لها، عملي كان فيه بعد كبير، سفر متواصل، وليال كثيرة تغيب رؤية عيني لوجهها الملائكي، وبانتهاء وقت العمل.. أغدو إلى حجرتي متعبًا، ويحل سكون الليل، تغلق هي الأخرى كل شيء؛ كي تتفرغ لمكالمة الغرام الليلي، وكأننا أبناء العشرين.. مع أن عمر بقائنا معًا تخطى الخمسة وعشرين عامًا.

نظل نتحدث، حتى تمضي الساعة الأولى، فيعلن الهاتف انقضاءها، وحلول وقت المدة الثانية، وتصر هي على إكمال الحديث.. حديث يخلط بين مشاكسات أحداث البيت وتعب العبء، ثم ينصرف مرة أخرى دون أن ندري لكلمات العشق وهمسات الحب. وإذا مرَّ يوم دون المكالمة اليومية تتصل في اليوم الثاني معاتبة بشدة نسياني لها، وتلوم قلبي الذي استطاع أن يغمض أذنه يومًا دون سماع صوتها. أبتسم رغم بعض الغضب، وأشعر بزهو الحب الذي يرضي غروري وأنا أقول.. أيها الرجل، هي تحبك، لا ترتكب جريمة عدم مكالمتها ولو ليوم واحد، أعباء العمل التي نقتسمها،

وصوتي الذي تعرف من نبضاته حالتي.. ما بك؟ أجيب: لا شيء. ترد: لا تختبر صبري، أنا أحفظ أنفاسك، أعرف لحن صوتك حين يصيبك الكدر، وحين تعجز الكلمات عن وصف ما أصابك.

أجاهد كي لا أتكلم، وتجاهد هي الأخرى كي تعرف ما أصابني: حبيبتي، لا تقلقي.

تقاطعني: تكلم.

أخبرها دون مقاومة كطفل يهرب باكيًا إلى أحضان أمه خوفًا، فيتعلق بها وتربت هي على رأسه في حنان. أشكو مما حدث مع نزيلة في مطعم الفندق، ضربت أطباقًا لتكسرها اعتراضًا على وصفي لسلوكها في التعامل مع عملي الذي بذلت فيه جهدًا كبيرًا، وتقول بكل بساطة: ارمه في القمامة، نحن دفعنا ثمنه.

لا يهمني الأمر، لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟ العمل لا يتيح لك فرصًا للدفاع، وإدارات الفنادق تستمع بنسبة كبرى لصوت نزيلها الذي يمنحها بطاقة المال.

أغمضت عيني وأنا أصف لها مدى ما تركه هذا الشأن في قلبي من قهر، ولا تتركني إلا وقد ضحكتُ من أعماق قلبي، تقتسم حزني؛ فيزول، وتعاستي؛ فتتلاشى، تنهضني من يأسي وتذكرني بأن تقوى الله هي ما تجعل لك من كل أمر مخرجًا.

أغلق الهاتف شفقة عليها؛ كي تنام، وأشتاق لوقت يمر كي أعاود سماع صوتها مرة أخرى. في اليوم التالي، تذكرني بدموعي حين رأيت رجلًا طاعنًا في السن، وأنا أسعى بين الصفا والمروة. حدثت نفسي.. هل يعقل أنني سأصبح هكذا في يوم من الأيام.. الشباب والقوة والصحة التي تتلاشى؛ لأن هذه هي سنة الحياة.

– يا حبيبي، ألا تتذكر كيف غيرت تلك اللمحة حياتنا؟ كيف جعلتك تجتهد، لم يأخذ أحد بيدك، لكنك أخذت بيد الكثيرين. أخبرتني كثيرًا أنك تجد سعادتك في تعليم المبتدئين فنَّ المهنة، وجودة الصنع، وتحاول مع من يفتقر للموهبة حتى يقف على قدميه متى شعرت بصدق جديته في التعلم، وقلبك يقول.. لعل الله يسخر لولدي من يأخذ بيده في عمله. على مرافئ العمر يبحر المجتهدون، يتمتع بعضهم بالموهبة كأولئك الذين ينقشون فواكه منحوتة يصنعون منها لوحات فنية، ويحولون الخضروات لعمل مرسوم، أو أولئك البارعون في الحلوى ويجيدون صنع فنونها الفرنسية والإيطالية وغيرها من زهور العالم؛ يتدرجون في وظائفهم.. شيف، شيف مساعد، طاهي أول، وثاني، وثالث،.. إلى آخر تلك الدرجات، يقفزون لسلالم العمل، ويختار البعض أن يرحل عند درجة معينة، يهاجر بمهارته إلى بلد جديد يكتشف فيها ذاته، ويبحث فيه عن رزق جديد.



في مطبخ العمل.. منظومة حياة، نموذج كبير تقابل فيه المجتهد والمبتدئ والمتكاسل، ومن يجيد الهرب من المسؤولية. حزم لابد من توافره، ورحمة تجمع أرجاء الفندق في رمضان على مائدة واحدة، وقلب يتمنى ويحلم بأن يغادر؛ فصالات الرحيل لا تقيدك بعمر ما، لو أردت السفر لكان ذلك من أجلها؛ كي تفرح بحج أو عمرة، تقترب من تلك الأماكن فتغدو سعادتها ماءً يروي جوفي.

يحل وقت مكالمتها، تقنعني أن أبيع شقتنا كي نكمل بناء قطعة الأرض التي نملكها، وأضحك قائلًا لها: أنت تعرفين كيف بنيت؟.

فتخبرني ضاحكة: كنت على يقين، وأنت كنت تعاند.. هه. أنت نسيت أم ماذا؟!

أجيبها: لا. لا أنسى كيف كنت ضعيفًا حائرًا حين أصاب عملي وعكة، وتم بيع الفندق. وقتها صرف الفندق لنا مرتبات ومكافأة نهاية الخدمة، لكننا أصبحنا بلا عمل وبلا دخل، استعنت وقتها بالله، لممت حقائبي وغادرت مستسلمًا، ثم ذهبت إلى البنك الذي أضع فيه مبلغًا شهريًّا لدعم مرضى السرطان.. وأنا أقول.. ربي، هل من المعقول أن تكون تلك آخر مرة أفعل فيها هذا؟! وقلبي يتمنى أن يكون له مخرجًا؛ كي لا أقطع عادتي تلك.

لم أكد أصل إلى بيتي حتى وصلتني مكالمة بأنه تم اختياري من بين

مائة؛ كي يعملوا في فندق كبير في القاهرة، وافقت على فعل ما أردت، أنت تختار أن تفعل لمن تحب ما يريده ما يرغب به، حين تحب لا تقوى على رفض طلب الحبيب؛ فأنت تدرك جيدًا طباعه.

زوجتي حنونة جدًّا، ولديها من الصبر بحورًا، تفضلني عن نفسها حتى حين أخبرها أن تشتري لنفسها ملابسَ جديدة ترفض في خجل، وتأبى إلا أن أشتري لي أولًا. كاد قلبي ينخلع حين علمت بمرضها، وأصابني الجنون خوفًا عليها، وظللت أتابع الوقت حتى اطمأننت عليها.

غاليتي تلك تملك للبال مساحة شاسعة، أعشق غيرتها التي تخبرني بحقيقة معرفتي التامة بمدى حبها، ذاك الذي أثق فيه تمامًا. لم نأخذ على بعضنا عهدًا بألا يغادر كلٌّ منا إلى حلمه ليلًا.. ونحن متكدرون. كتبنا عهودًا دون النطق؛ فلا يبيت أحدنا وقلبه يحمل عتبًا للآخر.

الزوجة الصالحة زينة للدنيا..

لو كنت أملك أن أهديها قصائد المحبة؛ لفعلت.

لو كنت أملك مذياعًا للحب لكنت أخبرت المجرات بكاملها بحقيقة حبي لها.

لو كنت أملك تاجًا من الماس.. لوضعته فوق رأسها عاليًا؛ لأنها حقًّا تستحق.

# الشعر الأبيض

لا مكان له في الذاكرة؛ فلا تاريخ بيننا عشناه سابقًا، تفتحت عيناي على الدنيا وقد غادرها هو من ثلاثين عامًا مضت، وعشت في نعيم شقائه وقت شبابه. ورث أبي عنه المال والنعيم والرخاء، قرأت ذات يوم كلماتِه التي خطّها بيديه في صفحة من صفحات كتبه الأثرية، التي تعيش في مكتبتي الكبيرة، وعلومها كنوز لا تقدر بثمن.. كتب اللهم إني تركت أيتامًا حرموا من شفقة الخال وعدالة العم.. هكذا ترك جدي أبي يتيمًا، ولم يبلغ بعدُ الرابعة عشر من عمره، وفي رقبته أختان، انتقل من زهوة الحياة ورغدها لبيتٍ جدرانُه تتغذى بدماء القسوة، كان يردد علينا أن تلك الكلمة حين يسمعها يتذكر كم كان ضائعًا، أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام.

كان يحدثنا عن ذلك الضياع الذي عاشه، وكيف ودَّعته أمه صباحًا منصرفًا إلى مدرسته؛ ليعود يجدها ميتة.

رحلت، وقد كانت صباحًا تخبره أنها ستعد له أكلته التي يعشقها، انصرف بعد أن طبعت على وجهه قبلة.. مازال يشعر بحرارتها حتى يومنا

هذا، وكيف كانت قبلة الوداع، ودّع والديه في عام واحد، وعاد وإخوته ليبدؤوا رحلة حياة مع أعمامهم، كان يرمي له الخبز على الأرض ثم يخبره أن هذا هو ما لديه وليأكله، وأخته الكبرى حرموها من التعليم، بينما الصغرى ظلت تحارب حتى وصلت لمرحلة بسيطة في العلم بشق الأنفس، حين تغيب الرعاية وتفقد النصح تشعر أنك ضائع، وأن لا شيء في هذه الدنيا يمكنه أن يداوي جرحك، لليتم ظلمة لا يجرؤ أحد على تخيلها.

خرج من القرية منكسرًا ذليلًا، تركهم وسافر لإكمال تعليمه، غاب كثيرًا، وافتقد النصح في وقت الشباب واندفاعه.. لا عجب إذًا حين كان يعيد على مسامعنا نصائحه مرات ومرات ومرات. ويتبع نصحه لنا قوله: لم نجد من يخبرنا بذلك مثلما نفعل يا أبنائي، رفقًا.. لا تكرروا أخطاءنا، واستمعوا إلى أصوات خبرتنا؛ فهذا الشعر الأبيض لم ينبت على رؤوسنا من فراغ. لا تنزعجوا حين نخبركم أننا نريد مصلحتكم، ولا تتمردوا حين نطالبكم بالصبر، ولا تحزنوا حين نقسو عليكم؛ فالحب يمكنه أن يتخذ شكل النصح في بعض الأحيان، وبرغم الحزن لا ينسى اللهُ العباد. وكيف يسخر لنا من البشر من يرسلون الفرح لقلوبنا، ويزرعون الأمل بداخلنا مرة أخرى. من رحم الألم يولد الأمل، هكذا أرسل له الله محاميًا يملك مكتبًا مرموقًا. كان والدًا لأحد أصدقائه، والذي حدثه عن حقه المهضوم، وأنه قد علم أنه قد ضاع، ويدرك أنه

لا يمكن إعادته، ودون أن يدري أن لحظة الصدق تلك التي أخبر بها صديقه كانت مفتاح الأمل بالنسبة له.. فاجأه اتصال من مكتب ذاك المحامي، ذهب وجلس معه، وتحدث من أعماق قلبه عن مشكلته اليائسة، وعن بحر الظلمة التي يراها في قلبه أينما وقع بصره.

كانت مفاجأة كبيرة له حين أخبره أنه سيعيد إليه أرضه وكامل حقوقه من أعمامه دون مقابل.. وقد حدث. تذكر قول الله (وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين). واختلفت الحياة وبدأ بصيص من النور يضيء تلك الظلمة التي أهلكته وأكلت من عمره أجمل الأوقات، القسوة في الصغر علمته أن يقف على قدميه من جديد، وأن يدرك أنه مهما طال أمد الحزن والتعاسة؛ فستشرق شمس السعادة مرة أخرى على قلوبنا من جديد.

وها هو مع زوجته التي يعشقها وحوله أبناؤه الذين يتمنون رضاه، ويخبرهم دائمًا أنهم ذريته الصالحة التي منَّ الله عليه بها، يخطبون ودَّه ويتمنون رضاه، وتخبره ابنته أن حنانه لا يضاهيه حنان؛ فهو أول حب لها في هذه الدنيا، وأنها أميرته التي دللها واعتني بها دومًا، وهاهو يعود إلى قريته التي خرج منها مستسلمًا حائرًا، وقد بنى في مقدمتها بيتًا يشبه القصر، وأعزه الله بعد الذل، وزارت وجهه تلك الابتسامة حين كان يخبرهم.. أنه لم يكن يحلم بما هو فيه الآن.. زوجته كانت بالنسبة له النصف الرائع في دنيا اقتسماها.

كل منا لديه ألم ما.. مرارة ما.. وظلمة ما؛ يتذكرها حين يهزمه اليأس، الحزن، أو الشجن. تعيش بداخله تلك التربة الخصبة دون بذور. لا لأننا نقاوم زراعتها بالأمل، بل لأننا نهرب من وجعها بتلك الكلمة التي تسمّى.. النسيان.

عندها سندرك أن رؤوسنا نما إلى أوراقها.. الشعر الأبيض.

# البحار

البحر غدار، أجابني: تلك أكبر كذبة يخبروننا بها مرارًا، يتكلمون عن روعته وعن حكاياه، ثم يتبعون الوصف بأنه غادر. يظلمون البحر بأقوالهم ولا يعرفونه كما أعرفه، البحر صديقي، منطقتي التي منها أطل على العالم.. يعيش في كياني ولا ينفصل صوته عن فكري، البحر صديق، يختبر صبري، وأختبر غضبه، فأطيب الخاطر كي يهدأ، أنا في هذه المهنة منذ سبع وخمسين عامًا.

لا يقلقني البحر؛ فأنا أجيد ترويضه وأحسن إليه، فيتحدث معي هامسًا بالحل حين يثور أو يغضب، لا أخاف سوى على الأرواح التي أحملها على متنه؛ فهذه أمانة، لا أسعد إلا بعد إيصالها لبر الأمان.

غادرت وطني فأنا من أبناء السويس، كنت في الثانية عشر من عمري، أبي كان كبيرًا في السن، وجسده لم يعد قويًّا ليتحمل عبء العمل. إخوتي أكملوا تعليمهم، أما أنا فاخترت الطريق.. أحببت البحر، كنت نابغًا في إصلاح المراكب وصيانتها، يحل وقت قبض المال فأهرع إلى والدي، أعطيه كل المال، وأُبقي معي فقط ما يكفيني، كنت أفعل ذلك بطيب خاطر فلا أطيق

رؤية والدي متعبًا أو بحاجة للمال من أحد، وظللت على هذا الأمر لسنوات، كانت سعادتي جمة مع كل نجاح لأخوتي ومع كل ابتسامة أراها في أعينهم.

أب وأم كوى الشقاء جنباتهم، حملا معًا شقاء العمل الذي يعتمد أساسه على الصحة، فإذا ذبلت.. فقد كلاهما البريق وحل الوهن والضعف.

سألته: لم تشعر بالضيق؟ لم يهمس قلبك لك.. هذا مالي من حقي أن يكون كاملًا لي، أن تملك حلمًا خاصًّا بك.

أجاب في ثقة: لا، كنت أشعر بالمسؤولية، وكان هذا الأمر يشعرني بسعادة لا توصف، الشقاء له لذة ما، طعم يجعلك متفائلًا بما تصنع، قدرة تجد لذتها في صحة في رضا في توفيق.

قصة زواجي كانت بسيطة وقصتي معها كانت باهرة، أرى فيها نصف جمال العالم والنصف الآخر يجتمع في ابتسامتها التي تنسيني الوقت، فيمضي معها دون عتب. عندها أجد حلًّا لكل مشكلة، وهوانًا لكل صعب، وتيسيرًا لكل عسير. أبناؤنا الثلاثة ذقنا معهم حلاوة الخطوة المتمهلة في بناء السكن وصدق الالتفاف حول مائدة واحدة، زوايا خاصة تجمعنا ولغة واحدة نشترك في فهمها، يفهمونني ويحفظون أنفاسي، أتكلم بعيني فيترجمون كلامي دون عتب، أحدثهم كما أحدث البحر، وأقتل شوقي لهم في العودة حين أخاطب البحر عنهم.

البحر يعلمنا كيف نغزل حبائل الصبر حتى إذا ألقينا بها أرست القارب وضمنت له النجاة وقت لا يملك أحدنا قراره، في عرض البحر.. صادفت قصصًا كثيرة ما كان يقيدني سوى من تعلقت أرواحهم الفرحة صاعدين عليه، يعيشون هم لحظات السعادة الانبهارية، وأعيش أنا تفاصيل القلق بألوانه.. عليهم. حتى تغادر آخر قدم سطح مركبي نزولًا.

سألته: أنت وطاقمك تتكلمون بلغة خاصة، أشعر أن بينكم مصطلحات تنطقونها بالعربية، ولا نفهمها نحن الزائرون المتجددون على عالمكم المتحرك.

ابتسم في سعادة قائلًا: لكل قارب أسراره ولكل لغة سكانها، تمر علينا كل الأجناس، وقارات العالم رأيتها دون دفع تكاليف الزيارة.

- عم سيد، هل تحب مهنتك؟

قال في هدوء: حتى لو لم تكن ترغب في شيء، الحياة تعلمك أن تستمر، أن تحبه.. أن تتعلق به فيغدو جزءًا منك؛ كي يمكنك بعدها أن تحيا.. أن تكمل، لحظة من المؤكد أنك كنت تحب شيئًا ما بشدة في شبابك.. كيف كنت تنفق على نفسك؟

يخبرني.. كنت أحب ارتداء الملابس، كانت سعادتي كبيرة حين أشتري لنفسي شيئًا جديدًا، يتملكني الفرح مع كل قطعة ملابس تلمس جسدي، وأهتم كثيرًا بهذا الأمر، حتى يومنا هذا.

نظر بهدوء، وقال: سأخبرك أمرًا، (ثم هز رأسه وكأنه سيفصح عن سر خطير) لقد رأيت الحبيب.

وقفت عاجزة عن الفهم، عن إدراك هول الكلمة وروعتها، غفلت عن سؤاله.. ما الذي فعلته لتستحق مثل تلك الهبة، جل أمنياتي كانت أن أراه، وأمنيتي الدنيوية أن أرى أبنائي أفضل مني، حرصت على تعليمهم. ابنتي تزوجت وزففتها لرجل حقيقي، أكرمها. وابني الأكبر تخرج من كلية الحقوق، أما الأصغر فحصل على تعليم متوسط، حزنت لذلك كثيرًا، لكنني احترمت اختياره في النهاية، أثبت لي اجتهاده وصدق نيته؛ فهو يكسب أجرًا جيدًا، يجعل هذا الأمر قلبي مطمئنًا، أتركه في هدوء، يعاود صمته وحديثه مع البحر، الصديق الذي يجد معه متعة البعد عن مكر الشاطئ وقسوة اليابسة؛ فالبحر في نظره أبدًا.. مكان الاطمئنان لا الغدر.

# إني رزقت حبها

بعضهم عاش متألمًا من غدر الحب، أو تأخر الحب، أو ربما رحيل الحب.. الرحيل لا يترك لك خيارًا؛ إنه يفاجئك، فتتعجب من حالك، وكيف يتركك ضائعًا!.. وزهرتك التي تذبل وقلبك الذي يختنق بأوجاعه يفكر كل يوم وكل لحظة فيمن رحل. ألم الذكرى ووجع الفقد.

مجتمع لم يُدرَّب على فهم تلك المشاعر، قلب فتاة رقيقة فقدت خاطبها، رحل عنها في حادث أليم، ظلت سنة بعدها تسأل نفسها.. كيف سيمضي من ذاكرة يومها أنها تراه في كل حين لا يغادر وطنها، مشاعرها، وحلمها الذي بنيا معًا أساسه.

مجتمع قروي لا يجد في رأي الفتاة ضرورة حين يتقدم لخطبتها آخر، أرغمها أهلها على الزواج من رجل سبقها في العمر بسنوات عديدة، تزوجته رغمًا عنها، زوجة ثانية لرجل كان في حياته زوجة وأبناء في عمرها، بيت كبير وقاس في كل شيء، وقلب كبر قبل أوانه. حياة جديدة واختلاف في كل شيء، واقع جديد صعب وفرحة لم تعرف لها معنًى إلا حين أنجبت

ثلاثة أبناء.. عطاء الله وهديته، حب يندثر، وحب يمضي، وحب يولد في أعين أطفال صغار.

أمور تجعلك تقف في وجه القسوة، الطغيان والعنف، لكل امرأة حرب.. عليها أن تخوضها، وكانت معركتها دفاعًا عنهم، لن يهزمها وجع، ولن يثنيها شيء، كانت دائمًا تقول في رقة: يا ابنتي، أن تموتي على قدميك خير من أن تعيشي جاثية فوق ركبتيك، عمر كامل من الشقاء الممزوج بلذة القرب منها، حياة كاملة من العمل، وذاكرتي تخلو من رؤيتها، تتمنى شيئًا لنفسها.

امرأة مرهفة في زحمة حياة كاملة من العمل، لا تملك وقتًا كافيًا لتفكر في أي شيء، شقاؤها الكامل كان لنا، وقتها كان لرعايتنا، دعاؤها نحتل فيه القسم الأكبر، هدفها سأقف على قدمي سأجعلهم يتعلمون، سأتحمل القسوة، الجحود.

زوج وأبناؤه وبيتٌ.. جدرانه كانت شاهدة على ما أصاب شبابها من عنف وانكسار، ليت للجدران قدرة على النطق لاستطاعت أن تروي تفاصيل ألم الجسد، وحرقة الدموع.

عيناها، وجهها، ويدها، قوتها تجلت. لم تستسلم، لم ترحل، لم تترك دورها، لم تفكر في ذاتها. كلمة أنا ليست من مصطلحاتها، عيناها. لا تلتفت إلى المرأة.. إلى الأنثى التي بداخلها، بل لنا، وحب عظيم.. سعادة كانت تتملكها مع كل ورقة بدرجات جيدة، ومع كل مرحلة تعليمية نتخطاها.

في كل وقت كانت تستل قوتها، فزوجها لا يريد تعليمهم، وأبناؤه لم يصيبها منهم إلا الكدر، فما ضعفت حتى حين كان يدركها الوهن ولحظات الاستسلام. ثمة قوة خفية كانت تجعلها تقف على قدميها من جديد. نقاؤها جعلها رحيمة متسامحة في حق من أخطأ في حقها، معاملة حسنه لأبناء زوجها، إحسان للمسيء حتى رقت قلوبهم.. أحبوها.. اعترفوا بفضلها وحسن خلقها وبقسوتهم التي لم يكن لها محل. ندمٌ جاء متأخرًا لجيل كامل من السنوات، مسافة جيدة استطاعت بذكائها أن تقرب بين الإخوة وتجعل لأبنائها سندًا. هكذا كانت تفكر فينا، في حياتنا.. حاضرنا ومستقبلنا حين تتركنا.

امرأة نادرة، طاقة الحب لديها ليس لها حدود، كثيرًا ما نتعجب من أشعار الحب، ومن قصائد الغزل، لكن لا حب يمكنه أن يقتلك كحب أمك. وقت العيد.. أيام الصيام وحين نجتمع في أحضانها.. قلقها الدائم علينا.. قلب يرعاك ويكرمك الله من أجلها. أوقاتي مع أمي شكلت لي العالم بأسره، ووجعي عليها لم يجعلني أتمنى شيئًا سوى رؤيتها سعيدة، ابتسامتها كانت تبني بداخلي جذورًا من الأمل، وقتي بجوارها كان يشكل لي متعة تمنحني راحة وسعادة لا توصف.

تزوجت الأخت الكبرى، وبدأ حصاد العمر، ثم الأخ الأكبر.. قطعة أرض ورثتها أرادت أن تكمل لنا طريقًا يجعلنا سعداء. هي امرأة سعيدة

بنا، حين أنجبتُ ابنتي تذكرت، فلقطعة الحلوى التي تتذوقها فرحة.. مذاق في فمي، بزواج أخي وأختي بقيت أنا، تمنت بعد العمر أن يرزقها الله حج البيت الحرام، وفي كل مرة كانت تقول: عندما تتزوج حبيبتي الصغيرة.

نموذج نادر، وحب شكل في حياتي رزقًا، فلكل منا رزق، وأمي قد رزقت حبها. كانت لي وطنًا.

مرضت أمي بالفشل الكلوي، تنقل من مشفى لآخر، أجهزة تغسل دمك لأربع ساعات متواصلة ثم تعيده لك مرة أخرى، أدوية وعلاجات وتدهور للحالة الصحية، وقت كبير وليالي طويلة نقضيها في عنابر المشافي، حولك المرضى من كل صنف، وقلبي يكبر قبل أوانه. أصوات الأنين ودموع غرباء أمهات وجدن من عقوق أبنائهن فرصة فدعون عليهم وأبناء تاركين. أيُّ فقد للحب وأي تاريخ بينهم جعلهم هكذا.

سكون الليل وصوت مريضة وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، أشياء تعيش زمنًا فلا تراها. مع مرض أمي عشت تلك اللحظات، وجع أمي كان يقتلني وخوفي من فقدها طعنني. أما هي فابتسامتها وأحضانها الدافئة كانت تجعلني آمنة، تخبرني.. لا تجزعي، سينزل الله علينا السكينة والاطمئنان، سيقف إلى جانبنا، وسيكمل النعم بالستر كما حدث سابقًا. تمنت أن تزوجني أن تزفني لمن يختاره قلبي، وأن تطمئن عليّ في بيت زوج يحبني ويكرمني، فيهدأ بالها

ويسكن خاطرها نحن حين ننجب، لا يعد قلقنا على أنفسنا يشكل لنا أهمية، قلقنا على أبنائنا يقتلنا.. يمزق أوصالنا في صمت ينقلنا من السعادة إلى هم الأمنيات، كانت ممزقة بين احتياجها لي في مرضها، وقلقها على مستقبلي وخوفها من تركي حتى حلت لحظة الفراق. خمس سنوات من المرض، رحلت أمي؟ نعم، رحلت حبيبتي. ماتت، ومات معها كل شيء.. ضحكتي، صوتي، عيناي، ألم لا يمكن وصفه، جروح تتمنى لو تغادرك سريعًا، وقت ثقيل ولا يمضي. الفراق لا تمحُهُ كلمة، والنسيان يأخذ من أعمارنا ودموعنا أعوامًا، بيت خاوٍي من صوتها، إخوة في هموم الحياة منشغلون، وليل يحل على قلبي وحدي دونها، خوف.. ترقب.. وبكاء.

الأماكن تزيد أوجاعنا، الرحيل عنها بمثابة المسكن، صور لها في كل مكان، أينما أغمضت عينيي أراها، أردت تمزيق كل شيء، بل مزقت صورًا؛ علّ هذا الوجع أن يتوقف، لكني لم أستطع تمزيقها من رأسي، الاستسلام جعلني أحاول التعايش، أقلدها حين كانت تقف على قدميها من جديد بعد كل خيبة أو وهن، لا أحد يمكنه الصمود كل الوقت، لكن كثيرين يستطيعون التخلي وترك كل شيء أول الوقت.

تقدم لخطبتي شاب- في نظر الجميع- كان رفضي له خطأ فادحًا، لا يعلمون أنها أخبرتني في أحلامي أنه ليس صاحب النصيب؛ فلا تتعجلي، وأن من سيصون قلبك مازال في الطريق إليك.

بعد فترة تقدم آخر، حدث كل شيء بسرعة وبسهولة تعجب لها الجميع. خطوبة قصيرة، شقة انتهت في وقت قياسي، ومال تركته لي ساعدني على إكمال جهازي، مال لم تنفقه على عمرة أو حج أو حتى مرض، قائلة لي برفق: يا ابنتي، حتى تكوني مستورة وقت زواجك.

وقتها قالت لي في رؤيا أكرمني الله بها: حبيبتي، هذا هو زوجك، افتحي له الباب. كانت روحها لي راعية في كل خطوة، زوج محب وسعادة أشكر ربي عليها، تزوجنا وبدأت مشوار الحياة محاطة بقليل من الخوف، ويد زوج تخبرني أبشري سنسافر بلد الحبيب كتب الله لنا السكن بجواره.

سافرت دون أن يخطط أي منا لشيء، رزقت الحج والعمرة ولأمي أهديتها عمرة. أكرمني الله بدعوات أمي، رزقت برها في حياتها وبعد مماتها، جعلني جوار الحبيب أهدأ قليلًا وأبتسم، وأفكر بنفس طريقة أمي، أرى مع أبنائي متعة في رعايتهم، وحلمًا يتشكل في تربيتهم تربية إسلامية صحيحة، وأمنيات أن يحفظ لي ربي زوجي وأبنائي، وأن يسكن أمي الجنة.

في الغربة، وجدت الوطن!!.

افتقاد العودة إلى بيت الأم، أو إلى مكان تلجأ إليه حينما تكون مرهقًا من ضغوطات الحياة؛ كان يشكل بداخلي وجعًا سرعان ما يزول ويتلاشي،

فلا بيتٌ خالٍ من المشكلات، رعاية الله تجعلك تبتسم، وتستمد قوتك من جديد، ومرة أخرى تنهض.

حقًّا، رحلت أمي.. لكنها صنعت في حياتي معها طريقًا زودتني بعبير ورودها وحنانها، فلتعلمي يا حبيبتي أن حبي لك منهج حياة، وأنك كنت لي شمسًا أضاء عالمي ووجداني، مع كل دقة قلب أقولها على الملأ.. إني رزقت حبها.

# في النهاية

في النهاية يتعلق الأمر بالحب وبالمال أيضًا، دومًا.. رأيتهما لا ينفصلان في كل حكايا الحب.. أعمقها، أقواها، وأكثرها أسًى.

الحب والمال كانا دومًا مقترنان برباط، كم من قصة حب انتهت بسبب المال، وكم من مال ساعد على نجاح وإنشاء حياة. الوطن جميل بدفء من يزينون عالمنا بقربهم، من نرغب حقًّا في ألا يغادرونا وألا نغادرهم.

سافر الحبيب إلى غربة، وخلَّف وراءه زوجة محبة، وطفلة صغيرة، لم يسعد برؤية الذكريات الأولى لقدم تتعلم السير في الطريق، عائلة صغيرة وحب كبير.. يشتركان في أقساط الأجهزة الكهربائية، أجرة المنزل، وطلبات البيت التي لا تنتهي. يتركها مغادرًا ويظل القلب حائرًا متلهفًا لمكالمة الأسبوع.

قالت لي: أخذت القرار، حسمت أمري، وقررت أن أسافر أنا أيضًا، أردت اللحاق به، لا أحتمل أن يعود يجر أذيال الخيبة، ويتحمل نظرات العتاب ممن حذروه بألا يسافر، وأن الهروب من الوطن بلا جدوى، عمله أصبح على شفا الانهيار.

سافرت حتى يصبح على كفالتي، أعمل أنا وأضمن له مزيدًا من الوقت المستقطع، فإن حالفه الحظ ساهم معي في حمل المركب وإن لم يحالفه.. سأكون أنا من يمنع هذا القارب من الغرق للأبد.

أنهيت إجراءات السفر.. التفاوض، توقيع العقد، اعتماد الكشوفات، وما يلحق ذلك من أوراق إلى آخر هذه الدائرة. حل وقت السفر، أخبروها.. لا يمكنك أن تصحبي معك ابنتك، لم يتبق شيء حتى تذكرة السفر تم حجزها، إنها الوعود الواهية والأحلام التي تتمناها في خيالك ولا تتحقق على أرض الواقع.

سافرت، تركت قطعة من قلبها في مصر، رحلت ودموعها تجرح عقلها وكيانها. على وسادتها ليلًا كان فؤادها محطمًا، يبكي لساعات، صوت بكاء صغيرتها يخترق المسافات.. يمزقها.. يجعل عينيها لا تعرف للنوم موضعًا، ومال يصرف بجنون على مكالمات هاتفية للاطمئنان عليها.

تركتها عند أمي، لكنها امرأة كبيرة في السن، ترسلها إلى أم زوجي من وقت لآخر، أتصل على بيت الحماة، أسأل عنها تخبرني أنها تركتها عند الجيران!، أصابني الجنون.. قررت أن أحاول عمل استقدام لها، حاولت ورُفض الطلب. عدت للخوف.. سينهون عقدي وزوجي في بلد آخر تجمعنا غربة واحدة وتفرقنا المدن. الوقت يمر.. وحال حبيبتي الصغيرة ينحدر، الضغوط تتزايد وقلبي يتمزق.

في لحظة يأس.. لعنت كل شيء، كتبت استقالتي ونزعت باب غرفة المدير في قوة.. أخرجت كل الغضب والحنق الذي بداخلي، المدهش في الأمر أنهم وافقوا على طلب الاستقدام. قتل فرحتي تكاليف ذلك تذاكر الطيران لي ولها ذهابًا وإيابًا، لكنني عدت بها أخيرًا لأتحمل وحدي رعايتها ورعاية نفسي.

وقتها، بدأ قلبي في الحصول علي بعض الراحة، لا يراك الآخرون في العمل بصورتك.. بهمومك التي تملأ وجهك، وتجعلك تائهًا ممتلئًا بالحيرة، مسافرًا بذهنك لمكان آخر، يشغل رأسك ألف شيء في الدقيقة الواحدة، أفقت على صوت دكتورة سارة.. وهي تعنفها بشدة، رأيت وجهها الذي امتلأ بالحرج، وعينها التي زارتها موجة من الدمع الحار، كم من قلوب تصطنع السعادة وهي تبيت في تعاسة، تزرع الضحك حيث لا يمكنها حصد الثمار، تترك مدنًا كتبت لها لترحل لأخرى تتمناها في خيالها.

في الغربة، حكايا كثيرة عن النساء، ضحين بسعادتهن ووقتهن وبعدهن عن أحبابهن.

في الغربة، ثمة أمنيات تتحقق.

في الغربة، -أيضًا- أوجاع لا يعلم عنها إلا من عايشها، فقلب المرأة محيط عميق من الأسرار، والسعادة دواؤها، والمال يلعب دوره بينهما في النهاية.

# ظل الحائط

يا عزيزتي، أنت لا تملكين خيارًا.

أجبتها: كان بإمكانك الرفض، المقاومة لا تتعلق أبدًا بعمر أو زمن.

رفعت عينيها في وهن، سألتني كلنا قصص في ملكوت الله.

قصتي ليست بذاك الإبهار الذي تحاولين إخباري به، أنت نفسك قصة.. وكل أولئك الناس حولنا قصص، حكايتي ليست سوى قطرة من قطرات المطر المتساقط من سحاب العمر.

- صفاء، تبهرني طريقتك، تفكيرك، تتكلمين.. وكأنك تبلغين من العمر سبعة وسبعين عامًا وليس سبعة وثلاثين.

قالت- بابتسامة باهتة-: ما رأيته يجعل كل شيء يبدو في نظرك ضعيفًا وساذجًا.

تعجبت من حكمتها، وأنصتّ لها صامتة.. حدث كل شيء بسرعة، لم تكن المرة الأولى التي أضرب فيها بتلك الوحشية، في كل مرة.. كنت أضمد جراحي بنفسي، وألجأ لربي شاكية له دون البشر، في كل مرة.. كنت

أتحمل من أجلها. نعم، من أجلها. أطلقت عليها اسمًا جميلًا، وظللت أترقب مرور الأيام.. فلم يتبقَ سوى شهرٍ واحدٍ؛ لتحل حبيبتي الصغيرة في حياتي، كنت أشعر بها، وأنصت لقلبها تحدثني وأحدثها وأخبرها أنها خير هدية لي في هذا العالم، لم أستوعب ما حدث لي، ظللت يومين متعبة، أقاوم حتى حدث النزيف، الطريق إلى المشفى كان طويلًا جدًّا، وكأن لا نهاية له، وحالتي ميئوس منها. انتقال من مشفى لآخر، وكل مشفًى يرفض استقبالي حتى استقر الأمر على مشفًى كبيرٍ.

أدخلوني لغرفة العمليات، خطأ طبي.. أفقت بعده على حقيقة فقدان حلم الأمومة إلى الأبد؛ استأصلوا الرحم!. في المشافي تختبر اللامبالاة، ويذهلك كم تتحجر القلوب وتصدأ من هول ما ترى. أخبروني أن ابنتي في العناية المركزة، لم يخبرني أحد أنها ماتت. كل يوم كان يأتي الأطباء متسائلين.. هل ماتت صفاء؟ فقراءة تقاريرهم تجعلهم على يقين بذلك. أما أنا فكنت أقاوم من أجلها، من أجل أن أحيا لها، وبداخلي صدًى يتردد.. هذا الوقت سيمضي.

خرجت إلى غرفتي، وجلست أتناول طعامي، بدأت أستعيد عافيتي قليلًا، وشعاع من الأمل بدأ ينير داخلي، نظرت إلى أمي، وقلت لها: هيا أعطني ابنتي؛ كي أراها وأرضعها.

قالت لي: صفاء، ابنتك ماتت.. احتسبيها عند الله.

شعرت لحظتها أن أحدًا قد استل سكينًا، وطعنني في قلبي دون رحمة، رفعت يدي للسماء وقلت: ربي أردتها خذها إليك أخذًا جميلًا. كنت عاجزة عن البكاء، لكن عينيّ تختنق من الدموع، يصبح الأمر حينها صعبًا.

سألتها: وزوجك، كيف كان رد فعله.

نظرت لي قائلة: زوجي، جسم رجل وعقل طفل.

سألتها: أكنت تعلمين.

قالت لي: أهله لم يخبرونا بشيء، أتعرفين المثل القائل.. ظل رجل ولا ظل حائط!، اكتشفت أن ظل الحائط أفضل بملايين المرات.

نظرت في عينيها قائلة: ألم تحزني؟.

قالت: بلي، لكنني اليوم أقوى بإيماني بقدر الله، وأن ما حدث هو خير لي، الشيء الوحيد الذي ندمت عليه أنني قلت.. لماذا يا الله زوَّجتني هذا الرجل، وعسى الله أن يغفر لي ويسامحني، أتوب إليه من هذا الذنب.. الحمد لله.. الحمد لله.

فتحت حقيبتها؛ لتخرج منديلًا ورقيًّا، وجدت حقيبتها تمتلئ بالكثير من الأدوية، سألتها: ما كل هذا؟ قالت لي أنها للكلى، بعد العملية تدهورت

صحتي بشكل كبير، وأصبحت أغسل كلى. أنا الآن بخير، هذه الأدوية تريحني كثيرًا. الحمد لله، أترين جسدي الهزيل هذا.. كان من الممكن أن يحمل ثلاثة أشخاص قدم واحدة كي يحركوها من مكانها، وأنا اليوم بفضل الله أفضل.

ما حدث لي يستحق الشكر لا الضجر، أنا الآن في المسجد النبوي، وبعد أيام.. سأرى الكعبة، وسأدعو الله أن تكون كل دعوة لي مستجابة.

حين دلفت إلى المستشفيات.. تأكدت كم أن أمري بسيط وصحتي طيبة. أنا أفضل من غيري كثيرًا.

رأيت في لسانها ذكرًا وحمدًا ورضًا عظيمًا نادرًا، وأخبرتها أنني سأدعو لها. كانت أمنيتها أن أدعو لها بحسن الخاتمة، والصبر.

الرضا بقضاء الله.. يمنح قلبك السكينة والهدوء، ودعت تلك الإنسانة الرقيقة، وتمنيت أن ألتقيها مرة أخرى في حياتي، ودعوت لي ولها.. أن يحسن الله خاتمتنا جميعًا.

# الخوف

تتحدث عن الأمر.. وكأنه شيء عادي، تصفه دون خجل ودون عناء أو حتى رغبة في البكاء. ترفض الحديث عن مدى صحة هذا الفعل، تقف عند رواية المشهد وتصف العنف بدقة، وكأنه مشهد سينمائي.. هو يضربها وهي معه مستمرة في الحياة! يخبرها أنها ناشز وللضرب مستحقة، يقنعها وتصدقه!، هي تنتظر العقاب اليومي؛ فهذا شيء عاشت فيه، ويبدو أنها ستظل.

خدع قلبها وعقلها، فكلاهما لا يحمل نفس الجنسية، ويجمعهما غربة واحدة، يحضر لها الهدايا، ثم يعتذر، ويتكرر الفصل الأخير من مسرحيته من حين إلى حين، وهي لا تقوى على إخبار أهلها بحقيقته؛ فهي أم لطفل منه.. تخاف أن يرحل به إلى وطنه، ثم لا يمكنها بعد ذلك أن تراه.

تشتاق لبيت أبيها ولوقتها مع أسرتها.. ذاك البيت الذي شهد أيضًا طفولة بائسة، خطأ بسيط يرتكب كفيلٌ بتحويل الليلة لمأساة كبرى من الضرب بالحزام.

تتذكر قائلة: ذهبت إلى مدرستي، كنت في الصف الرابع، كانت الكدمات تغطي وجهي، وتظهر جليةً على أذني وجبهتي. نادتني معلمتي وتحدثت معي عما أصابني، أعطتني وشاحًا غطيت رأسي، واختبأت خلفه من كل شيء.. من هذا الكسر الذي أصاب روحي، احتفظت به حتى صرت لا أنتزعه بالرغم من وجودي في مدرسة للبنات. تحمل معها دمية صغيرة، لا تغادر حقيبتها، تخبرني.. تعاطف دميتي صامت لا نهاية له، آثرت الابتعاد، لم يصب نفسي الكثير من الشوائب، تقربت من الله، وزادت صلابتي بصلاتي، دعوت الله كثيرًا. إخوتي كانوا أشبه بكأس تم طحنه بلا رحمة حتى بات كدقيق متناثر، لا يمكنك جبره باللصق، وإن حاولت لَمَّ شتاته.. سالت الدماء من كل أوصالك لشدته.

أفاق أبي علي مأساة أخي الأكبر والأصغر، طاف بهما على كل أطباء النفس، اسطوانة مكررة يرويها، كان أبي قاسيًا.. يضربني بشدة. لا أستطيع أن أمحو تلك المشاهد من رأسي، إن روحي معذبة، من طبيب للآخر، ولا دواء أمكنه أن يبتر الوجع.

سألتها: أين كانت أمك من كل هذا؟ هل كانت تدافع عنكم، أو تمنع الأذى؟

قالت لي: هي أضعف من أن تقاوم، كانت تخاف من أبي كثيرًا، توافقه

على كل أفعاله وآرائه، ثمة أشياء تسلبك شخصيتك دون أن تشعر الخوف. يا عزيزتي، هو من يصنع ذلك.. أن تعيش في الخوف عمرًا كاملًا يجعلك الأمر لا تفكر في شيء أفضل مما أنت فيه، الكهف الذي تبنيه وترفض أن تغادره لعالم أفضل منه، ثمة أمور يمكن أن تمنحك القوة، وثمة خوف يجعلك تفقد كل شيء.. كرامتك، وكبريائك.. وربما آدميتك كإنسان.

# مساحيق التجميل

حين يعيش وجهٌ دون أن تزوره تفاصيله مساحيقُ التجميل لعمر كامل، بل ولا تخطر على باله تلك الكائنات؛ تصبح تلك الأمور بالنسبة له كمشهد جميل عابر من حكاية أو مسلسل يكتفي فقط بالنظر إليها دون أن يسعى أو حتى يفكر أو حتى يتمنى أن يجرب ذاك الشيء الذي يراه، لا يحاول أن يحلم برغم أن الخيال لا يكلف المال، ذلك لأن مساحة عقلها عندئذ لم تكن تتسع لأي تفكير سوى أبنائها واحتياجاتهم، لا ينمو لمخيلتها وليس على قائمة أولوياتها أن تفكر في شيء ما لنفسها.. لتلك الروح التي تعيش بداخلها، وتبقى أمانيها مجرد إحساس، تسارع في نفضه، وكأنه عيب عليها أن تشتهيه، أنها أم تربي أبناءها الثلاثة دون أب، انقطعت أخباره يوم سافر إلى بلاد الغربة باحثًا عن حياة أفضل، وتركها مع إمكانيات بسيطة لتقود مع الحياة حربًا، ولتبقى على قيد الحياة، وضعت لنفسها خطة، ورسمت لأهدافها خريطة، ثم بدأت في التنفيذ.

كان مكسبها البسيط يشكل لها كنزًا وسعادة لا يمتلكها كثيرون ممن يعيشون في ترف التعاسة، وحلمها يتجسد لحظة بلحظة، ووعيها بأهمية التعليم

يجعلها تجاهد وتغرس في أطفالها بذور العلم، الذي لم تنلْ منه قسطًا؛ لأن ذلك يتعارض مع رغبة زوجة أبيها، والتي فضلت إبقاءها خادمة. وحين زوَّجوها.. كانت غرفتها الصغيرة في بيت حماتها تعني لها الخلاص من الجحيم.

كانت أمنيتها أن تعرف كيف تقرأ القرآن الكريم، وكيف تعرف عنوان مكان دون أن تسأل أحدًا عن مكانه، ودون أن يشعرها ذلك بالحرج.

وفاء.. كان اسمها كصفتها، تجسد الحب لزوج غادر، وتؤصل في أبنائها معنى الاحترام لأب تركها ضعيفة وحيدة، وإذا تمرد أحد أبنائها ناقدًا لأبيه، ومذكرًا لها بقلبها المعلق بالسراب لم يجد ذلك منها إلا كل عنف في مواجهة هذا النقد، وذاك النقاش الذي ينتهي بدموعها باكية، ثم بطفلها يطبع قبلة رقيقة على يديها معتذرًا.

لم تكن «وفاء» بحاجة للقوة أو للشدة في مواجهة مراحل التربية، وما تحمله من حيوية وانفتاح على الحياة. كانت تكفي دمعة واحدة من عينيها لينهزم أمام ضعفها أبناؤها، نضجوا قبل أوانهم، وتعاملت هي معهم بوعي لم تدرسه في كليات الطفولة، أو تقرأه في كتب التربية، في الحياة تكفي خبرة، وشعر أبيض يغطي بلونه سنوات الشقاء ودروس تعلمتها من بحر الدنيا وآلامها، وها هو ثمرة شقائها.. وقد بدأت أولى أوراقها في الظهور. إنه طبيب، نعم.. ابني طبيب.

تطوف على بيوت حارتها وتنشر الخبر، وتوزع أكواب الشربات التي اختزنت قيمته ووفرته لتنفقه ذاك اليوم، وإذا لم يفتح بيت منهم تعود فتطرق الباب مرات ومرات، وكأنها اختزنت بداخلها كل تلك السنوات؛ لتخبر العالم بأنها نجحت، يمكن للزهو بما نملك أن يأخذ أشكالًا كثيرة، وأوقاتًا مختلفة وسعادة وقتية زائلة.

أما «وفاء»، فلم يعرف وجهها قصة مساحيق التجميل، ولم يزر خيالها حتى رغبةً ولو للحظة؛ لأنها كانت تدرك في قلبها أن مساحيق التجميل ستنهزم أمام فرحتها يوم كتب ابنها في كتب الأطباء، وجمالها اليوم ينهزم أمامه كل أشكال الجمال، وتنحني له مساحيق التجميل؛ احترامًا؛ لأن لقبها اليوم هو.. أم الطبيب.

# الحب يا سادة ينتهي

تروي لي حكاية عمها المتزوج منذ عشرين عامًا.. من حب عمره ورفيقه دربة.. أبلة ليلى، أو هكذا نناديها، ومرافقته في رحلة الشقاء والعمل ما بين اليابان ودول عربية مختلفة.

كان أمامها صورة مكتملة الملامح للحب الحقيقي النقي، كان يحضر لها الورود لوقت قريب، ويفتح لها باب السيارة. تلك اللمسات التي افتقدتها كثير من النساء، أسسا مع بعضهما منزلهما الجميل ركنًا ركنًا.. وقطعة قطعة، عاش لحظات لم تُروَ للكثيرين، وقراتها هي في عينيهما نموذج مثالي للحب، ويقين أنه لا يمكن أن ينتهي، لم ينجبا مع كل المحاولات المستمرة، لم تفلح السبل، استسلما للواقع.. وتوقفا عن المحاولة. منذ صغرها وهي تري ذلك نموذجًا للحب الهادئ الجميل. نموذج تمنت أن تحظى به هي في حياتها القادمة، مع الوقت ورياح الأسرة المتمثلة في العمَّة التي تريد أن ترى أولادًا لأخيها الأكبر، من لقاء لآخر.. لتعارف على أرملة في عمر لم يتجاوز التاسعة والعشرين، أمٌّ لبنت وحيدة، توفي أبوها في حادث أليم.

سألتها: هل تزوج؟

قالت: نعم.

قلت لها: هل أخبرها أم لا؟

قالت: نعم. وافقت أبلة ليلى؛ فهي لا تريد سوى أن تراه سعيدًا، امرأة جميلة طاقة الحب له عظيمة تتمنى سعادته في أن ينجب طفلًا جميلًا.

أنجب الطفل الأول، ثم الثاني. تحملت.. وضحَّت حتى وصلت لنقطة لم يعد بإمكانها المقاومة. اختارت الانسحاب من حياته وحياتها، اختارت الطلاق.. أغلقت عينيها وهي تشاهده يغادر الشقة ويغادر حياتها للأبد، وقلبها يخبرها.. الرجل الذي فاز بك؛ غادر ولم يعد موجودًا.

الأحلام التي أردناها بشغف صارت بخارًا مبعثرًا، رحلت عن بيتها وزمانها ومكانها. رحلت بعينيها وقلبها ومشاعرها، وافترق المحبَّان في هدوء، سألت نفسي.. أيهما سينسى الآخر؟ وأيهما سيشتاق نادمًا؟ هو أم هي؟ أم كلاهما؟

نعم، رحلت.. غادرت حياتنا جميعًا بلمساتها الحانية، وآرائها التي كنا نلتف حولها لتسمع حكايا قلوبنا البريئة.

رحلت.. ورحلت معها صورة من صور الرومانسية الجميلة، التي

نتلهف إليها في زمن غابت فيه معاني وأماكن الحب في القلوب.

رحلت.. وانتهى الحب. فحب العم العزيز غادر، لم يتحدث عنه، أقفل ألبوم الذكريات، التفت لواقع جديد، وأحلام تتشكل في أبنائه الصغار.

ويبقي ذلك الجزء اللحظي عندما يذكرها.. ربما لم ينسها كليًّا، لكن نسيانه لها ولو جزئيًّا.. يكفي لأقول إن الحب يمكن أن ينتهي.

عيب الحب حين يتركك.. تصبح بدونه مشوّهًا، بك الكثير من العطب كفاكهة فقدت بريق قطافها الأول.

عيب الحب حين يغادرك.. وكأنك زجاج كسر إلى مئات القطع.. كلما حاولت الاقتراب منها جُرحْت.

للحب عيوب.. وعلى قدر عمق الحب على قدر وجعك الشديد منه. قلوبنا مهما أحرقت سيأتي عليها يوم وتتوقف؛ ببساطة لأن كل شيء ينتهي.. الإنسان ينتهي.. العمر ينتهي.. المال ينتهي، والحب يا سادة.. ينتهي.

# نظل نحبهم

علي محطة القطار.. جلست، وجدت مكانًا مناسبًا للانتظار. هكذا أحب أن أنتظر، وأكره أن يتركني وحيدة على رصيف الحياة. اتخذت مكانًا لا تطاله أشعة الشمس الذهبية؛ فخيوطها تصنع الأذى على وجهي.

كانت جلستي بجانب امرأة طاعنة في السن، تجاعيد الحزن تملأ عينيها، ومظهرها يوحي بأنها من طبقة.. تجد كثيرًا من أبناء دنيانا يتهكمون عليها، عالمها هو القطار وسيلة المواصلات، التي تعرفها. وهذا الطريق وحده هو الذي تحفظه عن ظهر قلب، لا تعرف غيره. لا لأنها لا تسافر أو لا تعمل، بل لأن حياتها لم تتعدَ هذا المحيط.

معها جلست، ووقت انتظار القطار طال، وجدتها تسألني: ابنتي، كم الساعة؟ أجبتها.. عادت لتسألني من جديد: هل سيتأخر القطار؟. لا أذكر وقتها كيف بدأنا في تفاصيل الكلام! وكيف كان لكلامي معها رونق خاص!. سألت.. أتدرسين؟ أخبرتها، ورأيتها تعرف عن التعليم الجامعي ما يجعلنا ننخدع بمظاهر الناس دون أن نفكر أن فكرتنا عنهم ستتغير

بمجرد حديث بسيط. كم من أشخاص رسمنا عنهم ملامح وهمية، وأخذنا انطباعات خاطئة، ثم.. اكتشفنا كم كنا مخطئين. وجدتني أسألها: يا حاجة، عندك أولاد؟ قالت لي: نعم، إن ابني محامي كبير، ولديه من الأطفال ثلاثة، يأتي لزيارتي من حين لآخر.

وجدتني أنظر لعينيها لأرى سفينة من العتاب تبحر جاهدة.. محاولة أن لا تغرق في بحر حزنها، وجدت نفسي أضغط على جرحها؛ لأجعلها تتكلم. فقط؛ ليهدأ قلبها، أليس للراحة مصير على وسادة القلب حينما نخرج ما تئن به قلوبنا ونعجز عن قوله أمام أقرب الناس؟!. وجدتها.. وقد بدأت أول دموعها في مغادرة بحر عينيها.. قائلة: هو لا يسأل عليّ، أجاهد للاتصال به ولا أجده، أحضر كل أكلاته التي كان يعشقها، ويطلبها مني مرارًا وتكرارًا، والتي كنت أزوده بها مسافرًا لمدينته الجامعية؛ حيث يسكن.

أتذكر فرحتي بأيام الأسبوع، وأنا.. أسابق الزمن كي أعد ما لذ وطاب في استقباله، أتمنى أن أراه معي في العيد.. أفرح بأولاده. عادت وقد مسحت عينيها قائلة: إنه مشغول، ولديه الكثير من العمل، لا أعلم إن كانت تبرر لنفسها، أم تخدع نفسها. هي أم، مهما تألمت منه ستظل تحبه وستكره من يخبرها بعكس ذلك. كانت بحاجة لأحد لا تعرفه لتبكي أمامه متجردة من الحرج، وتخرج طاقة الحزن التي أدركت أنها تعيش بداخلها منذ أعوام،

ربما كنت ملهمتها ذاك اليوم على محطة القطار، لكنها هي من ألهمتني بعينيها، وبصبرها، ووجعها.

مبرراتها، وأعذارها، ذكرياتها معه وعنه، وجعها، وأمنيتها بأن يكون له حضور في يوم العيد على طاولتها وبجانب قلبها.

كم نحن بحاجة أحيانًا للغرباء؛ لنُسمعهم صرخات قلوبنا، وحكايات الحزن الساكن ممن غادرونا، وتركوا بداخلنا قلوبًا ممزقة عليهم، ورغم ذلك نظل نحبهم بنفس القدر وبنفس القوة.. ما تبقى لنا من عمر.

# أمنية هدى

للزمن- دومًا- عنوان، وللحكاية بداية، وللقصة نهاية.. حين نقرأ السعادة في العيون، ونبحث في خفايا التفاصيل عن سحر تلك الضحكة التي ترقص على وجوه نقابلها كثيرًا في حياتنا.

هدى.. أو كما تحب أن نناديها أم محمد. هي امرأة تخطت سن الثلاثين بسنوات قليلة، تتنقل من بيت إلى آخر، تختلف أماكنها وتتنوع أوقاتها، ويبقى عملها ثابتًا في كل المنازل، التي ترنو إليها في كل محطات حياتها.

هي ببساطة خادمة. لا أحب ذاك اللفظ، بل يعجبني كلمة مساعدة، فلم تأتِ لي مرة إلا وقد ساعدتها في كل ما تقوم به، هي الرحمة التي تجعل من قلبي وضميري ملاذًا لتلك القصة، ولهذه الإنسانة التي نسميها (خادمة).

أنهينا عملنا المعتاد؛ فقد وعدتني بأنها ستقضي ليلتها عندي، وستسافر في صباح اليوم التالي، أحضرت لها ولي كوبًا من الشاي؛ لنرتاح بعد عناء هذا اليوم، وبادرتها: هدى، ما أكثر شيء تتمنيه؟ ما أكثر شيء يسعدك؟ وما الذي تحلمين به؟.

كانت أسئلتي لها ثلاثة، وإجاباتها لي واحدة.. غرفة صغيرة أعيش فيها مع إنسان يحبني، غرفة صغيرة حقًّا، لا أريد أكثر من ذلك. مجرد غرفة صغيرة هي في نظري قصر من السعادة التي أتمنى أن أعيشها، تلك الحماية التي أرجوها في إنسان يحبني ويكرمني، أحلم به.. وقد مسح دموعي، وأخبرني أنه سيظل بجانبي، وسيرعاني ولن يتركني. أتخيل نفسي معه وقد خرجنا معًا، يمسك يدي، ويخاف علي، ويدافع عني، نشرب عصير القصب.. ونتناول حبات الترمس وحبات اللب، نتشارك لحظات الهواء العليل، وطراوة انكسار حدة الحر في نسمات الليل، أتمنى الحب.

هي إجابة بسيطة، وهل منا من لا يتمناه!. وهل منا من لا يبحث عنه، وهل منا من لا يعيش حياته في انتظاره. هو ببساطة الحب.

سألتها: وهل أحببت قط في حياتك؟

قالت: أحببت، وتمنيت أن يجمع الله بيننا، لكنه أراد مني التخلي عن أولادي.. أحمد ومحمد، وهل تملك أم أن تتخلى عن أبنائها، بل وعن ابن أختها التي توفت بالسرطان في بلد لا يعالج فيها إلا الغني.

جلسنا نتحدث ونضحك، ونخلق بداخلنا فرحة الفضفضة، والراحة التي تعقب كل كلام.

وجدتها في الصباح وقد بدأت تستعد للسفر، تتناول حقيبتها التي يبدو

أنها حصلت عليها من بقايا لوازم أخرى، تخرج منها كيسًا بلاستيكيًّا قد بدت عليه علامات الإنهاك، التي تظهر جلية في تكسرات أطرافه، تتناول منه كريمًا للبشرة.. وآخر للكحل.. وحمرة للخدود، لم يتبقَّ في كل منهم سوى القليل، تخبرني أنها تحب وضع هذه المساحيق وتحب اقتناءها، وأن هذا القلم كان آخر هدية من صاحب أمنية الحب المتبخر، تعاود لملمتها في هدوء، تحافظ عليها جدًّا، وتحرص عليها.. وكأنها تملك كنزًا ثمينًا، فيه تجد سعادتها.. وبه تشعر بأنوثتها، ومن خلاله تتيقن أنها مازالت على قيد الحياة، ودعت هدى على أمل لقائها.. وقت حاجتي إليها، انصرفت بسعادة، وعلى وجهها تلك الابتسامة، ووجدتني أفكر ماذا لو تبدلت الكراسي؟ ماذا لو خلقنا.. ووجدنا أنفسنا في مكانها، هل كنا سنتحمل؟ وهل كنا سنرضى؟..علمت بعد عدة سنوات..أنها تزوجت وأنجبت طفلًا آخر.. وأن زوجها بنى لها بيتًا بسيطًا، الأمنيات التي نرجوها وتتعلق قلوبنا بها.. ليست بعيدة التحقيق؛ فالدعاء يصنع المعجزات، القيد الذي قيد معصمها في السابق مضى بلا رجعة.

للحمد تاج.. وللقلوب أمنيات.. وللسعادة سر.. حين تتحقق أمانينا.

# الجميلة

لو سألنا عن الجمال، أو عن روعة الجمال، أو عن أبهار الجمال.. لو تغنينا بالقمر، وشبهنا أجمل نساء الأرض بالقمر لاحتارت النجوم في اختيار من تستحق أن تسكن ذاك الكوكب من بينهن. كانت جميلة بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

فتاة لم تبلغ بعد عامها الثامن عشر، التقيتها في دورة تعليمية، كانت سورية.. من عادتي تكوين صداقات مع طالباتي، كانت زوجة لخليجي يكبرها بثلاثين عامًا. سألتها: ما الذي جعلك تتزوجين رجلًا يكبرك بكل هذه السنوات؟. أجابتني حتى أحسّن من مستوى أهلي الاجتماعي. قرأت بقية حياتها دون أن تذكر المزيد، وأخبرتني نظرات عينيها بما تهرب هي من تذكره، أو بما تتمنى أن يلفظه لسانها، ويستعصي على أذنيها سماعه.

كان من السهل بعد ذلك معرفة تفاصيل زواجها، الذي لم يتعدّ عشرة أيام.. حين رآها وحين خطبها.. وحين تزوجها. سألتها: هل شعرت بالخوف؟ كنت أقصد الحياة الجديدة التي تقبل عليها فتاة. أجابتني بتلقائية:

كانت ليلتي الأولى في بيت أهلي وفي غرفتي، لم أخفِ كثيرًا.. ولم أبكِ، كانت أمي بجانبي.. كلماتها كانت بسيطة، تصف الأمر.. وكأنه حدث وانتهى. ترفض الالتفات إليه، أو حتى التكهن بمدى قسوته، بمعنى أدق باعوها.. ودفع هو الثمن فوريًّا. لم يقف المال عائقًا أمام ما أراده، ولم تكن السلعة قابلة للفصال بين من يشتري وبين من اختار أن يكون بإرادته بائعًا، وكان جمالها هو الثمن الذي اشتراه، وكأن أسواق النخاسة التي سمعنا عنها في كتب التاريخ موجودةً خلف جدران الفقر والحاجة متى توفرت العقول التي تعيد تلك السوق، بمنطق ما تحلم به تجده ما دمت تملك المال. ظللت أفكر فيها.. وفي تلك اللمحة التي عشت تفاصيلها معها، نظرت في عينيها، وسألتها: سماح، هل تحبيه؟ قالت لي مباشرة: نعم، هو شاعر، سافرت معه إلى مصر وإلى الرياض، ركبت الطائرة.. وشعرت بروعة إحساسها حين تنقلك بين الأوطان، أسكنني شقة، ويعطيني مصروفًا شهريًّا، ذكرتني بطفل يفرح إذا زار الملاهي أو اشترى البوظة أو أضاف إلى خزانته لعبة جديدة. في الحب يمكن أن تهزم غروري بلمسة أو حتى كلمة، وفي السعادة ينبعث من داخلك كلمات لا تكون وقتها بحاجة لمبررات.

أنهيت الحديث معها قائلة: أتزورين أهلك في سوريا؟ أجابتني: لا. إنه يخاف ألا يعيدونني إليه مرة أخرى.

أكد لي جوابها أنني لم أنخدع بإجابتها عن أسئلة الحب، واليوم وجدت نفسي أسأل.. كيف هو حالها بعد كل تلك السنوات؟ وكيف حال أهلها، أو من تبقى منهم في تلك البلاد الحبيبة سوريا!.

تنتهي حكايا الحب، ونظل نسمع صداها. فمدن الحب يتسع صدرها ليحوي كل القلوب، تلك العامرة بالحب، أو تلك التي تتمنى الحب، أو تلك التي اختارت المال دون الحب.

# بعد الشتات

بعض الأمور لا يمكننا الحديث عنها، نتمنى فقط لو نلقي بظلالها لنسمع حلولًا لنا من آخرين لا نعرفهم ولا يعرفوننا. صفحات التواصل الاجتماعي جهاز صغير لنافذة عالم كبير، نقرأ فيه ما نريد، ونطرح الحلول لغيرنا.. نلوم البعض، ونختلف على طريق الحل لمشكلة واحدة.

في الحياة، لا مكان لسعادة كاملة.. ولا تعاسة كاملة، كلٌّ منا يصيبه نصيبٌ من هذا وبعضٌ من ذاك، عاتبوها.. كانت ردودهم عليها قاسية، اختبأت هي بمشكلتها خلف قناع آخر، وظلت تتابع في صمت أقوالهم، زادها حديثهم حزنًا، لم تفلح تجربة البوح في إفراغ همِّ القلب، أغمضت عينيها، قرأت كل ما كتبوه. بكت.. وتمنت لو فعلت مثلما يقولون، أوان قرارها قد ولَّى، وصدأ المحاولة ما عاد له قيمة.

طرحت هي الحلول مرارًا، غزلت كثيرًا من قصائد الصبر. حياة زوجية.. طرفٌ فيها يطغى على الآخر، عتب يومي، مشادات مستمرة على المأكل، والمشرب، وكل ما يتعلق بالإنفاق. أطفال يتمنون حلوى العيد،

وملبس يدخل السرور على قلب طفل، وقدرتي على التنفس تتضاءل، بخل شديد في الحب.. في المشاعر.. في المال، حتى قبلات أحباب الله الصغار!.. امتلأ الإناء، لم يعد بإمكاني التحمل، صدقوني لم أستطع، سلب كياني وابتسامتي وفرحتي. لا يختار إنسان أن يكون ضعيفًا بإرادته، لكنه ربما تربى على ألا يقاوم. نصنع أحيانًا لأنفسنا قيودًا.. فلا نصدق حين نحصل على الحرية أننا حقًّا قد خرجنا من القفص؛ فالعصفور قد يتردد حتى لو كان باب قفصه مفتوحًا.

حدث الطلاق، أصبح للهواء مذاق آخر في رئتيها، اختلفت الحياة بعدها، عيناها لم تعد باكية مثل أمسها. كان الطلاق قرارًا تأجّل كثيرًا.. حتى حان الوقت. لأول مرة تبتسم، تفرح، تشعر في داخلها بسعادة البعد.. الترك.. النجاة من قارب غارق. وحين هدأت العاصفة؛ بدأت عاصفة أخرى.. صراع من أجل أطفال، كسر حقيقي، وجع امرأة على وليدها، وحنين لتفاصيل العمر معهم.

كنت ألوم القصص حين يتحدث أبطالها عن فقد الحب، عن ألم الهجر، عن صفعة الخيانة. للحياة جوانب مختلفة لا يمكن لأحد أن يعيش قصة أحد.. لكل منا قصته وقراره.

وقرارها جعلها تتنفس هواءً بلا رئة، أطفالها تخلت عنهم، أخذهم

مع ما أخذ من مال، وعمر، وحياة. وقت يمضي وأطفال يكبرون بعيدًا عن عينيها الباكية عليهم أكثر من ذي قبل، غربة في وطن.. وزرع للوم في قلوب صغار، أب يجيد صناعة الكره، وزرع للشوك.. شوك أدمى قلبها، وهي تستمع لصوت طفلها.. إنه اليوم ابن الخامسة عشر، لا يريد منها مبررًا، لا يرد على الهاتف، ولا تتوقف هي عن المحاولة. وقت طويل حتى بدأ يتسرب حنين العتاب بداخله؛ ليخبرها.. كم هو غاضب، ويلومها على تركهم، وأن زوجة أبيه تعاملهم سيئًا. يغلق الهاتف، تعاود الاتصال، ويكتشف الأب. ينقطع التواصل معهم تمامًا، يغيبون وكأن خيط الأمل بات وصله مستحيلًا.

حياة جديدة تبتسم فيها لوجه زوج آخر سافرت معه، هربت بعد أن ابتسم الحظ لقلبها، وبدأ يعزف لحنًا رقيقًا؛ رغبة في حياة مختلفة وجميلة؛ ليزور الشوق لأبنائها عالمها وكيانها. تفكيرها المستمر فيهم يمزقها. وزوج ينبغي أن تبتسم في وجهه باستمرار؛ احترامًا ومحبة.. لم ترد منا.. سوى دعوة أن يجمعها الله بهم، بعد الشتات.

# الحبيبة

رسالة من الغربة.. أرادت بها أن تخاطب من يسكنون قلوبنا، وتفصل بيننا وبينهم المسافات. أرادت أن تتحدث عنها، أن تخبرها كم تشتاق إليها!، وكم ترغب في أن يعرف الناس عنها. تلك الحبيبة، أخبرتني أن القلم خان تعبيراتها عنها مئات المرات، وأن حديثها لا تعرف كيف تبدأه! من أي الزوايا ستتحدث؟ وهل سيكون القلم عادلًا في الوصف؟ كيف سينقش تفاصيلها على الورق.

تلك الرحلة التي منذ فتحت عيني على الدنيا إلا.. ووجدتها. كم غضبت حين كنت أعود من مدرستي لأقف على الباب أنتظرها حتى تعود من عملها!، وكم كنت أتمنى أن أعود من مدرستي لأجدها تستقبلني بين ذراعيها وقت دخولي من باب المنزل. كانت أحلامي صغيرة، وكنت ألومها.. وأتساءل بعقلي الصغير: لماذا صديقاتي يعدن ليجدن أمهاتهن.. وأنا لا؟ ثم كبرت، وتذكرت وقت كانت أمي تحملنا صغارًا ماشيةً على قدميها مستيقظة في الصباح الباكر لتأخذنا إلى الحضانة، والتي أيام الثمانينيات كانت عبارة عن امرأة نجلس عندها لوقت معين حتى تعود أمي لتأخذنا.

أتذكر المسافة التي كانت تحملني فيها أنا وأخي ذهابًا وإيابًا في حر الصيف وبرد الشتاء، منذ تزوجت وأنجبت وهي في هذه الدوامة!. نعم، إنها المرأة العاملة، وربما تكون أمي نموذجًا من تلك النماذج التي تتكرر باستمرار في مجتمعنا المصري، ثم.. كبرت وأيقنت أنها ما نزلت لميدان العمل إلا لتوفر لي ولإخوتي لقمة عيش وملبس وستر يغنينا.

كانت بسيطة في كل شيء.. ملبسها، مأكلها، ومشربها. وهبت حياتها لنا منذ تفتحت أعيننا على الحياة، كنت ابنتها الوحيدة لولدين آخرين، أتذكر تعلمها لفن الكروشيه لتشغل لي أروع شالات الشتاء، ولإخوتي، تكسبنا بها مظهرًا خاصًّا، وتقينا بها لسعة البرد، أما ماكينة الخياطة فهي عشقها الأول. كم من فساتين غزلتها بأناملها لتجعلني ألبسها، وأتباهى بها أمام الآخرين؛ فذلك الفستان به من الفن ما هو أجمل من تلك المعروضات في فاترينات المحلات الجاهزة، وتلك البناطيل التي كانت تصنعها لإخوتي، وتلك مريلتي التي تزينها بنقوشها لتضفي عليها سحرها الخاص.

شقتها صغيرة، تحرص على نظافتها ورعايتها، وغسيلها ينتمي لتلك الحقبة التي كانت الغسالة العادية صوتها يرج جدران البيت والشطف والعصر. نعم.. إنها ليست كغسالات اليوم الأوتوماتيكية، التي رغم وجودها يشكل الغسيل لنا مأساة في حد ذاته.

يوم الأجازة الأسبوعية تغادرنا قبل الفجر لتركب الحافلة ذاهبة إلى جدتي، تدخل عليها البيت تخاف أن توقظها، تبدأ غسيل ملابسها وملاءتها وأغراضها، تمسح أرجاء المنزل، وتنهي عملها قبل أن تستيقظ جدتي لتغادرها مسرعة عائدة قبل التاسعة؛ لتحضر لنا ولأبي الإفطار، ثم تتولي بقية أعمال المنزل.

منذ نشأتي وأنا أراها في شقاء؛ فهي امرأة مطحونة، لكنها.. سعيدة. وكيف لا تكون سعيدة وهي تعلم الأجيال وتدرس في مدارس بلدنا الحبيب، ويتخرج من تحت يديها كل عام آلافُ الطلاب. تبدأ بطموحها في التقدم على طلب إعارة للخارج، فيُرفض الطلب، فتتقدم مرة أخرى فيُقبل الطلب.

تتساءل.. ترى، هل سأتمكن من أداء فريضة الحج يومًا ما؟ تطمئنها جدتي: والله سيرضيك الله يا ابنتي.

تسافر ونسافر معها، كانت سعادتنا جميعًا لا تصدق، كانت فرحتنا بركوب الطائرة ورؤية أشياء جديدة تجعلنا ندرك بقلوبنا الصغيرة؛ أن هذه ميزة لم تحصل للآخرين، إنها براءة القلوب التي يتمنى الكثير أن تعود كما كانت.

بلد جديد، حياة جديدة، مجتمع جديد، كان كل شيء جديدًا بالنسبة لنا، وكانت مرارة الغربة في السنة الأولى لا تصدق، ذابت معها جبال الفرحة الجليدية التي شعرنا بها وقت ركوب الطائرة. حقًّا، كم عجيب أن تتغير نظرتنا للأمور وقت نعايشها.

العمل في الغربة وشقاء الغربة وتحمل أشكال العنصرية وحمق الغرباء، سنوات من زهرة عمرك وقد استنفدت طاقتك وتهالكت قواك وضعف نظرك. نعم إنها أيام الغربة، أتذكر جيدًا ذاك اليوم الذي أتتكِ فيها تلك الرسالة.. لم يكن التواصل يومها سوى عن طريق "الرسائل البريدية" وقت كان لساعي البريد عمل ومكان على حائط حياتنا، معه نرسل الكلمات، وعبره نستقبل الأخبار.

كان وصول رسالة من مصر له مذاق خاص، تجعلنا نقرأ الرسالة مرات ومرات، نعيدها ونكررها وكأننا نريد أن نحفظها عن ظهر قلب. وجدتك تقرئين الرسالة بصوت عالٍ، ويتوالى صوتك في الضعف والاختناق، أدركت أن جدتي قد فارقت الحياة، مازلت أذكر كيف كنت تمسكين بالورقة، وكيف كانت تهتز الورقة بين يديك، وكيف تهاوت الورقة ساقطة في صمت قاتل، كيف توضأت، وكيف بسطت سجادتك على الأرض، كيف وقفت وكيف لم تقوي على الاستمرار، كيف سقطت على الأرض، وكيف بدأت بالبكاء. شعرت يومها أن جدران المكان لا تقوى على احتمال صرخات قلبك المكلوم، وأن دموع العالم لن تكفيك حزنًا عليها، بكيت معك.. عليك وعليها. وهل هناك أقسى على القلب من يوم الحزن الأول في بلاد الغربة!.

لا تتوقف الحياة، سنقف على قدمينا حتى لو كانت قلوبنا تبكي، إنها سنوات العمر.. وحصادها بنيتي أنت وأبي بتعاونكما قطعة الأرض التي يملكها أبي، وضعت شقاءك كاملًا في هذا البيت، وزينت بوجودنا فيه نظرة المجتمع لنا، دومًا كنت تجملين وجودنا في هذه الدنيا بأعمالك، لم تملك يومًا مالًا؛ كان كله لنا، لا أذكر أنك أردت يومًا شيئًا لنفسك، أو حتى سعيت لمجرد التفكير في شيء لكي، أما أنا فكنت تدخرين لتجهيزي قائلة لي بلطف: يا ابنتي، حتى تكوني مستورة وقت زواجك، فلا عجب إذًا أن ما كنت تحضرين منه قطعتين لي ولك.. ينتهي الأمر بالقطعتين لي.

قلبي، روحي، عمري، هكذا كنت تلقبيننا، وهكذا كنا نحتار في توزيع أوصافها علينا، وفي اختيار اللقب المناسب لكل منا، الفضل كل الفضل لنجاح زواجنا جميعًا لك، وقمة الأسى ألّا أكون بجانبك وقت مرضك.. حبيبتي.

تلك الحبيبة التي أحمد الله كل يوم على وجودها في حياتي، وأنظر لوجهها الذي كسته التجاعيد، ويدها التي أصبحت خشنة، وعينيها اللتين أرهقهما الزمن وأصابتهما المياه البيضاء؛ لأدرك أيام الشقاء، وسنوات الظلم في بلاد الغربة التي تحملتها من أجلنا، ولمرض أبي الشديد، والذي كنت دومًا بجانبه ملاكًا حارسًا وراعيًا.

أذكر حزنك الشديد عليه، ورحمتك الكبيرة به وبمرضه، وبحنانك وعطفك الذي عوضه عن سنوات اليتم، وكيف كان يصفك ويصف حنانك الذي لا يضاهي جمال سنوات عمري بجانبك.. حتى وردك اليومي من الدعاء والقرآن لنا.

إنها كلماتك البسيطة ويدك المرفوعة دائمًا للسماء.. حبيبتي.

رسالتي لك من أعماق البعد، وحبي لك، أتمنى لو كان بإمكاني أن أجمع لك كل ورود الشجر، وكل أصناف المحبة، لو كنت أملك حصاد الحب من قلوب كل البشر؛ لكتبت على كل الأوراق.. أنك حقًّا حبيبتي.

# دكان العم

كان وجهه ملائكيًّا، كان يلقبني بالأميرة، منه كنت أشتري الحلوى، تاركة كل العروض التي تغري فتاة صغيرة للشراء، وجهه الجميل وطريقته الرقيقة كانت تحملني على الشراء منه دون غيره.

مرَّ الوقت، فصلني عن حلواه الرحيلُ إلى بلاد الغربة؛ حيث الحلوى لها الكثير من الألوان الزاهية، تخدع العين وتبهر اللسان، لكنها لا تحمل بساطة حلوى العم في وطنٍ.. الشوق فيه لجميل العشرة، ووقع خطوات الأصدقاء، رهف اللقاء وبساطة الأحلام. عالمنا الصغير الذي يداعب الخيال، حياتنا الخالية من التعقيد، بساطة حلم بشراء حلوى وقضاء العيد في أحضان الجدة، كانت قلوبنا بسيطة.. ومن خلالها ننظر لعالم كبير، في وجه العم كنت أرى ملامح الدنيا، وفي بساطته سحر حملني على الذهاب إليه مرة أخرى، وجدت بعض الأشياء تغيّرت.. تبدلت بمفهوم التجديد، لكنها بالنسبة لي محت معالم كانت تعني لي الكثير، كانت كافية لطمس بعض الذكريات، وحين لم أجده أيقنت أنه رحل، الأماكن تفقد رونقها أحيانًا برحيل أصحابها، ثمة وهج يتلاشى، وثمة بهجة تختفي؛ ليصبح المكان يحمل طابع العادي أو ربما أقل.

# نكهة خاصة

خلف الفقر وخلف الحاجة.. بداخل الخانات الضيقة، والجدران المتهالكة؛ حيث ألم العوز وصاعقة الانتظار؛ هناك في ذلك المكان، وعلى ضفاف القلوب؛ يكمن الصبر.

هي امرأة بسيطة، حياتها لا نعلم عنها سوى ما تظهره ثيابها، وما يكسو وجهها من علامات شكلها الزمن، تجلس يوميًّا في حرارة الشمس صيفًا.. وبرودة الغيوم شتاء؛ لبيع تلك الأوراق البيضاء التي يشتريها البعض، ويهملها البعض الآخر. كنت أحب أوراقها البيضاء، أتعلم عليها.. أسطر بها حكاية نجاح في كل مادة من كل عام.

لا نعرف عنها سوى ما تبيعه، وتخبرنا التفاصيل بما لا يرغب كثيرٌ منا في سماعه ونقرأه دومًا في سطور الحياة.. من الفقر والصبر والابتسامة.

تحت الشجر، وعلى الرصيف.. تجدها وتجد غيرها ممن يلتحفون السماء، ويفترشون الأرض، ينشدون الرزق، ترقب أعينهم الطريق وتتابع،

مع كل قدم أمنية.. أن يشتري أحد بضاعتها، وفي نفسها تفكر.. هل سيحالفني الحظ؟ مع كل مارٍّ تفكر.. تنتظر.. وتتمنى.

كم من أناس أمانيهم بسيطة في هذه الحياة، وخلف قلوبهم تعيش الابتسامة؟!

مادام للحلال.. نكهة خاصة.. وما دمنا على قيد الحياة.

# مشهد

في صفحة من صفحات حياتنا؛ قطار أدركناه، أو مازلنا نبحث عنه، أو اخترنا بإرادتنا ألا نصعد على متنه.

صعدت، اخترت قطارًا متأخرًا؛ كي أمتلك مكانًا قريبًا من الشرفة، وبعيدًا عن أوقات الزحام، هناك جلست، درت بعيني في رحاب المكان، وجدت أناسًا من كل الأوطان: أوطان الحب، أوطان الفقر، وأوطان التجمل الزائف. عدت بنظري مرة أخرى؛ أتأمل القطار متنقلًا من قرية إلى أخرى.. ومن مشهد إلى آخر.

كل قرية حكاية وتاريخ، مزايا وعيوب. كل قرية تنفرد برونق خاص، وتتحلى بزهوة تبصرها بعض العيون، وتغفل عنها عيون أخرى. إنه ذاك الوقت.. وذاك البيت، الذي ينكشف كل ما بداخله لعلو طريق السكة الحديدية عن تلك العشة التي أبصرنا قاطنيها. أنظر.. غرفة صغيرة تنحصر جدرانها على حافة الطريق، ووراءها ترعة صغيرة.. أطفال صغار، وبعضهم لم يتعلم فنون المشي على قدمين بعد.

إنه وقت قرب أذان المغرب، واختفاء ضوئها الآمن، نسيت أننا في رمضان. تبسمت.. فها هي الأم تضع أكلاتها البسيطة على طبلية الإفطار، وها هم يلتفون حولها مستعدين لتناول الطعام بعد يوم من الصيام، ويحاول أخوهم الأكبر أن يجعل الصورة تتوقف عن الاهتزاز، يصعد ليتحدث برفق مع ذاك الهوائي راجيًا له أن يلتقط الصورة؛ لتستقر معه قلوبهم الفرحة وهم يشاهدون برامجه، تحضر الأم الرقيقة الماء، وتكمل الاطمئنان على أن الجميع قد التف حول مائدتها العامرة بالبركة والحب. أغمضت عينيّ وأنا أتابع المشهد في إعجاب شديد، بسطاء الدنيا وأحلامهم بسيطة، وفي أعينهم رضًا عظيم.

توقف يومها القطار عند هذا المشهد كثيرًا، ثم رحل. غادر إلى بلد جديد ومشهد آخر، ولمحطة أخرى.. ينتظره فيها آخرون من كل الأماكن.

السعادة هبة، منحة عظيمة، والرضا حقًّا مفتاحها.

# ميزان عادل

صنعت لنفسها كذبة وصدقتها!، صدقت أنه لا وجود للعقل إذا عشق القلب، خدعت نفسها حين ظنت أن العشق يهزم كل القواعد، ويطرد كل القوانين. والحذر الذي تصنعه خلفها وهو يدق أولى خطواته في عالمها.. عالمها الوردي الذي زارت فيه قصص الحب على صفحات الروايات التي تجيد قراءتها، وتحفظ مشاهد التفاني في الحب عن ظهر قلب، بل وتهاجم كل أنواع النساء ممن يجدن ضبط مشاعرهن، والاهتمام بقلبهن؛ حيث ينبغي أن تكون هي المرعية وليست الراعية.

كانت تشعر بأن التي تفكر بهذا المنطق غبية، وأنها تفقد الحب والرونق في حياتها كلما ذهب بها العمر أعوامًا للأمام. عاشت تفاصيلَ وردية، وهناك ضوء خافت يقول لها.. لا تكملي، لا يمكنك؛ إنك تظلمين نفسك، مضت.. ليس اختيارًا، بل لأنها لا يمكنها أخذ القرار بالابتعاد، لم تكن تملك القوة الكافية لتبتعد.. لترحل.. لتترك قلبها يصارع شهادة وفاة حبها في عالم جديد لا يوجد هو فيه؛ لذلك اختارت الاستمرار أن تكمل.

كانت مرهقة في بداية الطريق وعيناها لا تمل البكاء، تنكسر مرة ثم تعود عندما فقط يبتسم لها، ثم تنكسر مرة أخرى، ثم تعود فقط عندما يداويها، ثم تنكسر.. ثم تعود؛ لأن قلبًا صغيرًا بدأ يخفق في أعماقها، ثم تنكسر.. ثم تعود؛ لأن ضحكة صغيرها ترى بها جنة الله على الأرض، ثم تنكسر.. وتنكسر، و تنكسر. وفي كل مرة تُكرر الخطأ، وتعود. عادت وقد تحطمت وتحطم بداخلها رونقها الذي كانت تُعرف به.. ريشة.. فراشة.. عصفورة البيت، لا تمل الطيور من سماع صوتها حين تغرد، ولا يمل الآخرون حديثها حين تتكلم، ولا يمل قلبها من رسم صورة الحب الملائكي، ولا يمل عقلها من رسم خيوط الحب، وكيف بذكائها ستنسجها، لا تمل عن لوم عقلاء مدينة الحب، ولا عن وضعهم في خانة التعساء.

يمكن للخيال أن يكون بهذا الاتساع! يا له من خيال رائع إذًا، ذاك الذي ينقلنا من الواقع بكل قسوته، ويجعلنا نعيش أركان سعادة، وحدنا.. من نخط صفحاتها ونكتب بها بأي خط، ونلونها بأي لون نقرره؛ فقط لأننا نملك القرار.

– مني، أنت ترهقين نفسك، تلهثين خلف سراب، وأنت متأكدة أنه سيظل يبتعد كلما اقتربت، لا يمكنك اختصار عالمك في خوفك من أن يغادرك لأخرى، أنت تهملين جوانب حياتك، وتنطفئين كشمعة قاربت

على التلاشي، ضوئك يتلاشى كشمعة متراقص ضوءُها في غرفة صامتة. أجابتني: لا، أنت مخطئة، أنا أحرص على كل شيء، أجيد ترتيب أولوياتي.

أمسكت بيدها قائلة: أنت تهملين أبناءك، تجعلينهم في الترتيب الثاني، يقفون محاولين أن يهمسوا لك.. نحن هنا، لا تصرفي نظرك عنا بأعذار الوقت، لا تمنحي الوقت الكامل لمن لا يمنحك ولو ظلًّا بسيطًا من وقت سيادته.

ونقاش تعرف ملامحه، ولا تضع لخيوطه نهاية، يختار بعضنا الحب طوعًا، ويكره بعضنا ما هو خيرٌ له.. مع أنه من الممكن أن يكون فيه خيرٌ عظيمٌ.

الميزان لا ينبغي أن تكون كفوفه جائرة، والعدل لا يعني أن يطغى حب الزوج على الأطفال؛ لكل منهم نصيب بيننا، ووحدنا من يمكننا أن نجعله ميزانًا عادلًا.

# دموع على متن قطار

من حظي، وجدت مكانًا على متن ذاك القطار؛ فقطار الصباح عادة ما يكون مزدحمًا.. طلبةً، موظفين، فتيات، عاملات، أمهات ينتمين لقاموس المرأة العاملة.

جلست قرب الشرفة، ألتصق بها.. وأبحر بعيني في هذا الجمال المتسارع ممزوجًا بنسمات الصباح، عجبت يومها؛ فالقطار لا يزدحم، يترك لي متسعًا من الهواء مسافة؛ ليتخلل ضوء الشمس الدافئ لكل جوانب القطار ما جعل عينيّ تنصرفان عن شوقي لتلك النسمات، ولهذه المشاهد المتسارعة، عدت بعيني لداخل القطار.. نظرت أمامي؛ فإذا بطالب يبدو من ملابسه أنه في مراحل التعليم الإعدادي.. كان صامتًا، وفجأة.. انفجر في البكاء، ظل يبكي لساعات متواصلة، ثم يعود ليخرج من جيبه مصحفًا صغيرًا يقرأ فيه، ويهدأ قليلًا.. يمسح دموعه يتوقف.. ثم تعود دموعه لتغلبه مرة أخرى، وتنطلق كشلال غاضب.. لا يمكن أن توقفه سدود العالم، وهكذا استمر في البكاء، ثم الرجوع للمصحف الشريف، ثم معاودة البكاء مرة أخرى، أدركت أنها ليلته الأولى في الحزن، وهل هناك ليلة أشد على

القلب من أول ليلة حين يولد الحزن كبيرًا!!، ثم يتهاوى مع مرور الزمان، أو ليس الحزن هو الكائن الوحيد الذي يولد كبيرًا، ويصغر بمرور الوقت.

لا أعلم لماذا ظلت تلك الصورة حاضرة في ذهني أعوامًا وأعوامًا؟ ولماذا أشجاني هذا المشهد.. ربما لصدقه؟ كانت حقيقية لا زيف فيها ولا خداع، كانت طبيعية غير ملوثة.. ولا متناقضة، كانت نقية.

كانت حقًّا من القلب.. من أعماق قلبه؛ بكى هذا الطفل.

# فهرس المحتويات